الدكتور أحمد زياد محبك

في انتظار فاتنة

قصص قصيرة

٢٠٢٥

العنوان: في انتظار فاتنة

النوع: قصص قصيرة

المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك

العنوان: حلب . سورية

الهاتف الجوال والواتس أب : ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

البريد الرقمي: mohabek@gmail.com

المنديل الأبيض

هو في حقله، يزيل بالمجرفة الأعشاب الغريبة من تحت الأشجار، ويتوقع قدومها، تحمل له زوادة الطعام.
فجأة ظهر له هابطًا من الكتلة الصخرية، في جهة الغرب، مدجَّجًا بمدفع رشاش وبنادق ومسدسات وقنابل يدوية وقنابل غاز وخناجر وسكاكين.

- قف مكانك، لا تتحرك، ألقِ كل ما معك من سلاح، إياك أن تتقدم، الأرض كلها مزروعة بالألغام.

فوجئ، خرج من وراء الشجرة، غرز رجله في الأرض، رفع هامته، وردَّ عليه:

- الأرض أرضي، والأشجار كلُّها أشجاري، من أين أنت جئت؟

قهقه عاليًا، ووجَّه إليه كل أسلحته، وصاح:

- لا تسأل من أين جئتُ، أنا جئتُك من كل الجهات، من أمام ومن وراء، ومن فوق ومن تحت، ومن شرق ومن غرب، ومن شمال ومن جنوب، هل يعجبك هذا؟ أنا لا أعرف الجهات، أسلحتي هي الجهات كلها، هيا، ألقِ كلَّ أسلحتك.

جبهته مطلية بالأسود، عيناه مخفيتان وراء منظار غريب، كمامة حربية سوداء تغطي أنفه وفمه، صوته مخنوق.

- ليس معي سلاح، عندي مجرفة تركتها هناك تحت الشجرة، كنت أزيل الأعشاب الغريبة.

- ألقِ كل ما تحمل من أسلحة.
- ليس معي غير منديل أبيض مطرز بعصفور يحمل بمنقاره وردة.
- لن ينفعك الكذب.
- أنا لا أكذب.
- لا تتكلم بالألغاز، لا تقل مجرفة، ولا أعشاب غريبة ضارة، ولا تقل منديل أبيض، مطرز بعصفور، هذا كله لا ينفعك في شيء.

ويصل صوت أنثوي ناعم ينادي:

- خليل، أين أنت يا خليل؟

يقهقه المدجَّج بالسلاح بصوت مخنوق من وراء الكمامة، ويقول:

- لا تردَّ، دعها تقترب، لعل اللغم ينفجر بها أو بك، فعندئذ تجمع أنت أشلاءها بالمجرفة، أو تجمع هي أشلاءك.

ويرجع الصوت يتردَّد كأنه قادم من سحابة:

- خليلي، يا خليل.

الصوت ينهمر كالمطر من السماء، يرفع المدجج بالسلاح رأسه، يوجه مدفعه الرشاش إلى السماء، ويهتف:

- لا ترهبني الأصوات، حتى لو هبطت من السماء.

ويوجه مدفعه الرشاش نحو الأعلى، ويرمي رشقات، وتدوي في الأرجاء أصداء تغيب في الآفاق البعيدة، ويعم الكون صمت عميق.

يلتفت المدجج بالسلاح إليه، ويصيح:

- خليلك لن ينقذك، بل هو الذي سيُرْديك، ظهري محمي بالكتلة الصخرية، هيا ارفع منديلك الأبيض، واستسلم، أريدك حيا، لا أريد أن أخسر فيك طلقات.

ويمد الفتى صاحب المنديل أنظاره نحو الكتلة الصخرية، ويلتفت المدجج بالسلاح إليها ويصيح:

- هل جاءت عشيقتك من وراء الكتلة الصخرية أو من فوقها أو من تحتها، إذن لها سأهدي هذه القذيفة، لن يبقَى منها شيء.

ويلقي بقذيفة من مدفعه المحمول على كتفه، نحو التلة الصخرية، وتندفع شُواظًا من نار، ثم يلتفت إلى الفتى:

- اذهب وأحضر المجرفة، لتجمع من هناك أشلاءها، وهناك ستنفجر بك الألغام.

وتصطدم القذيفة بالكتلة الصخرية، ويدوي انفجار كبير، وتتدحرج كتلة صخرية هائلة، يولي المدجج بالسلاح من أمامها هاربًا، فينفجر لغم وتتطاير الأشلاء.

وتتصاعد غمامة كثيفة من غبار، وينهمر الصوت:

- خليلي، أين أنت يا خليل؟

ومن غمامة الغبار، ترتفع يد بمنديل أبيض مطرز بعصفور يحمل في منقاره وردة.

ويسرع إلى المجرفة، تحت شجرة كبيرة، يحفر حفرة عميقة، يدفن فيها المدفع والرشاشات والبنادق والقنابل، ويردم الحفرة، يسويها بالتراب.

يبحث عن أشلاء المدجج بالسلاح فلا يجد لها أي أثر.

يسرع إلى الكتلة الصخرية، يلوح بالمنديل الأبيض، ويأتيه الصوت:

- خليلي، يا خليل، رأيتك، أنا إليك قادمة.

موعدنا الشجرة

إلى شجرة الزيتون ربط الفارس جواده الأسود، وقف ينتظر بزوغ البدر في الأفق الشرقي، هنا موعدنا، سوف تأتي. نسمات الخريف ساخنة، كأنها قادمة من بلاد لا يغادرها الصيف، شعاع القمر بدأ يهل.

امتطى جواده، وأسرع نحو الأفق الشرقي.

من هناك سوف تبزغ مع القمر، يريد أن يطوي الأرض، ليصل إلى حيث ستظهر، يريد أن يسبقها، وهي التي قالت: موعدنا الشجرة حين يبزغ البدر.

شبح ذئب يظهر في الأفق، وشعاع أحمر لاهب ينفجر وراءه، فيحدد شكله، وهو يرفع رأسه ويفغر فاه، يكاد يسمع عواءه.

هل هي الشمس في غيابها؟ لكن الذئب لا يعوي إلا عند اكتمال القمر.

التفَتَ، رأى القمر يبزغ من وراء شجرة الزيتون.

هل أضاع الجهات؟

عاد إلى شجرة الزيتون، ربط جواده مرة أخرى إلى جذعها، هنا اللقاء، يجب ألا يضيعها.

حين سألها: لماذا طلبتِ مني ألَّا آتي على جوادي الأبيض؟ ردت: أخشى أن يكشف ضوء القمر جوادك الأبيض، ويدل عليك الذئب.

الجواد واقف لا يأتي بحركة، كأنه يصغي إلى وقع أقدامها، من جاءت هذه الخفافيش؟ الجواد يرفع قائمته، ثمة خفاش التصق بكاحله وهو يلعق دمه.

الحصان يجفل، عواء الذئب يتردد صداه في الآفاق الشرقية والغربية.

ليس معه سوط ولا رمح ولا مدية، في صدره منديل أبيض أهدته إياه.

خيول وفرسان ورماح تتقاطر من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب، يدخل بعضها في بعض، تمرُّ به، تقتتل، تتصارع، يهوي فرسان، تتكسر رماح، تنزف دماء، تتناثر الأشلاء، يرجع إلى الجهات كلها من تبقَّى مِنْ فرسانٍ جرحى ملوثين بالدماء، ولا رايات ولا أعلام. هم أشباح، كأنه في حلم، لم يرَ لهم وجها، ولا شكلاً، ولم يعرف لهم ملمحًا، غرباء، دخلاء.

لماذا تأخر القمر؟ ولماذا تأخرت هي؟

كأن الشمسَ تودُّ الشروق من الغرب، هناك في الشرق وهج أحمر، وفي الشرق صمْتٌ، هل غيرت الشجرة مكانها؟

الجواد كأنه تمثال من شمع.

إذا جاءت فهل سيعرفها؟ كل شيء تغير.

المنديل أصبح بلون التراب، قلبه أصبح جذع شجرة نخرة، مِنْ حوله حجارة مدنٌ تتناثر وتتداعى، وأنهار تجف، وانهيارات، تملأ السماءَ غمامات بيضٌ تتألق، تسبح، تتأرجح، تقترب من الأرض، تهبط، ثم تعلو، تتناثر، ثم تعود فتقترب من الأرض.

ليتها تهطل. تدنو من الأرض الغمامات، صغيرة، شفافة، تعلق بشجيرات الشوك، ولا تهطل. تقترب منه غمامة، ليست غمامات، كأنها أكياس نايلون.

تأخرتْ كثيرًا، وأنا واقفٌ أنتظر.

يُحِسُّ بدفء على يده، يستشعر لمْسَة، بل لعقة، هل جاءتْ ولم يرَها؟ يرفع يده، فيرى خفاشا ثقب الجلد، وبدأ يلعق الدم.

تهب ريح باردة جدًا، تعقبها ريح ساخنة حارقة، تعقبها ريح باردة، فريح حارقة، فريح وريح وريح وريح، لم يبق من الجواد سوى هيكلِه العظمي، وهو واقف كأنه في متحف لهياكل الحيوانات.

يتلمَّس جسمه، هل أصبح هو هيكلا؟ ساقاه كأنهما قضيبان من حديد، لا يكسوهما لحم. يصيح:

. يا أنت؟

يرجع الصدى:

. يا أنت؟

الرياح بين حارة وباردة كالذئاب تنوشه.

ضوء أبيض يغمره، يرفع رأسه، قرص القمر الأبيض في قبة السماء، يكاد يسقط فوقه، كيف بزغ؟ من أين أتى؟ وأين هي؟

لماذا لم تأتِ؟ وها هو ذا القمر أو ما يشبه القمر ينحدر سريعًا إلى جهة، ليست الغرب ولا الشرق، لا يعرف، وما هو بضوء، وما هو بمرآة، وما هو بقمر.

يتذكر قبر جده، يتذكر الشاهدة الحجرية التي تحمل اسمه، اسمه هو نفسه اسم جده، هل هو قبره؟

قامته تقصر، قدماه تسوخان في الأرض، كأن الأرض تريد ابتلاعه.

ما يشبه القمر غاب، ولا شمس ولا ضوء.

حتى الجواد لا يكاد يراه، غابت الأشياء، لا سماء ولا أرض ولا نجوم ولا جواد، يوشك هو نفسه أن يغيب.

"تحرَّكْ، تعالَ، نحن هنا ننتظرك، لماذا أنت واقف"

أصوات لا يعرف من أين تأتيه، كأنه يسمعها أول مرة، هل أغصان شجرة الزيتون هي التي تناديه؟ هل الأصوات نداء أوراقها وجذورها؟

خطا خطوة، أصاب جبينه غصن الشجرة، سال دم ساخن، وإذا هو في مدينته والشجرة في وسط ساحتها الكبيرة.

عانق مدينته وأسوارها وقلاعها وحصونها وبساتينها ورياضها وحقولها وغاباتها وناسها وأهلها: رجالها ونساءها وأطفالها.

سمع أصواتهم وهم يزغردون:

. لماذا تأخرْتَ عنا؟ أين كنتَ؟ كلُّنا ننتظرك.

همَّ أن يقول لهم: أنا كنت أنتظر القمر.

ولكنه سمعهم يصيحون:
. "هنا القمر".
وتذكَّر جواده فوجده على الفور إلى جواره يحمحم.
وتذكرها، فأحس بحفيف ثوبها، وإذا هي بقربه، تهمس له:
. ألم أقل لك موعدنا الشجرة، لماذا ابتعدتَ عنها؟

لن ننسى أسماءنا

أقف أمام التمثال فاغر الفم حائر النظرات.

كتلة صخرية مشوهة، هل هو رجل؟ هل هو امرأة؟ لا ملامح محددة، لا هوية ولا شـــخصـــية، كتل بارزة ناتئة في جوانب منه، وفي جوانب أُخرى حُفَرٌ عميقة وأخاديد متموِّجة، هيكل ضـــــخم، ليس ســـويًّا، كأنه جذع شـــجرة زيتون عمرها ألف عام في حقل جدي، لا، بل جذع شـجرة جدي أجمل، قدمان غليظتان جدًّا، هما امتداد للصـخرة، متورمتان، من وقوف أو من مشـي أو من سـفر، لا أعرف، هما مثل قدميَّ الاثنتين، رأس صـــغير، مجرد كتلة، لا أرى فيه أنفًا ولا عينين، تائه الملامح، ظهره عريض جًّدا، وكتفاه غليظتان، هما ليســتا بكتفين، هما كتلة صـــخرية، هل هو أحدب نوتردام؟ في السـينما سـألني ابني مَن هذا الممثل؟ قلت له أنتوني كوين يمثل شـخصـية أحدب نوتردام، لم يصـدق، هذا التمثال أكثر قبحًا من أحدب نوتردام، ثمة كلمات أســفل التمثال، أقرأ حروفها، لكن لا أفهم معناها، لم يمض على وصـــولي إلى ميونيخ ســـوى ثلاثة أشهر، لم أتعلم سوى بضع كلمات، "اللغة الألمانية صعبة"، قال لنا أســـتاذ اللغة الإنكليزية هذا يوم كنا طلابا في الثانوية، فلم نصـدق، الإنكليزية لم أتعلمها أيام كنت في العشرين إلا بصـعوبة، وقد نسيتها، فكيف سأتعلم الآن الألمانية؟ وأنا في الستين.

تخطر أمامي صـــبية، تقف أمام التمثال، تمســـك بهاتفها الجوال، تلتقط لنفســـها صـــورة، أي ذوق هذا؟ لم تجد ســـوى هذا التمثال المشـوَّه لتلقط لنفســها صــورة أمامه؟ شــقراء شــعرها حقل حنطة، كأنه شمس بلادي الساطعة، ابتسامتها تغريد حساسين في حقل جدي.

. هل تستطيع التقاط صورة لي، صورة السيلفي ليست جميلة.

تتقدم نحوي، تمد إليَّ يدها بالهاتف الجوال، وهي تكلمني بإنكليزية ضعيفة، لكنها أفضل من إنكليزيتي.

حتما ليســت من ألمانيا، تســتند بجذعها إلى الصــخرة التي يخرج منها ذلك العملاق المارد، هي عند أسفل قدميه، أي تناقض هذا؟ السـحر والجمال والأنوثة هنا في الأسـفل، وفي الأعلى القبح والدمامة والغلظة؟ هل اختارت الوقوف هنا ليظهر جمالها أكثر؟ صــدرها المكتنز تدفعه فيضــج نداء الأنوثة، وفي حوضــها يشــع دفـء حنون، كأن الكتلة الصـــخرية قد تفجرت ينبوعا يتدفق منه الدفـء والنبض والحياة.

تشير إليَّ، تطلب التقاط أكثر من صورة.

تسدل شعرها على صدرها، تستند بذراعها، تميل بخصرها، تبتسم، تلتفت، ترفع رأسها إلى أعلى، جيدها المتألق بياضًا ساحرًا ينشــر عطره، هل جاءت من رمال الشــرق مثل غزالة؟ أم هبطت من جبال الألب؟ هنيئا لها من ســـائحة، على الأغلب جاءت من لشبونة، عبرت الحدود بسيارتها الخاصة المكيَّفة، لا جوازَ سفر ولا

تفتيش، لتمضي إجازة الصيف، ليست مثلي، وجهها يشع نضارة وحيوية، لم تنحشر في زورق صغير مثلي مع أكثر من مئة راكب، لم تدفع ثلاثة آلاف دولار للمهرّب، لم تخُضْ بحارًا، ولم تعبر حدودًا مشيًا على الأقدام، آهٍ من الحقيبة التي أثقلت ظهري، أخشى عليها أكثر مما أخشى على نفسي، فيها كل ما أملك، كل ما أحمل من شهادات وخبرات عمل، كلها لم تنفعني.

تتقدم مني، تتناول الهاتف، وهي تكرر بالإنكليزية:

. شكرًا، شكرًا.

ثمة شيء غريب فيها يجذبني إليها، أنستني الغربة، أنعشت روحي، ليس جمالها وحده هو ما جذبني، ليست أنوثتها المتفجرة، ثمة شيء آخر مختلف، لا أعرف ما هو.

أشير إلى الكلمات أسفل ذلك النصب الحجري، وأسألها بإنكليزية متعثرة:

. ما معنى الكلمة هنا، اسم الفنان؟

تنظر إلى الكلمة، ترفع شعرها إلى وراء بحركة ساحرة، ثم تلتفت نحوي، تتريث، تصمت، كأنها تبحث عن كلمة، ثم تقول:

. stranger

أفهم، هو غريب، حقيقة، هو غريب، ثم تضع إصبعها على شفتها، تفكر، تبحث عن كلمة، ثم تنطق:

. no. not stranger

تتلعثم، تضــغط بإصــبعها على جبينها، تتكلم بعفوية، كأنها تكلم نفسها، هي تبحث عن مرادف، أسمعها تقول:

. نازح.

لا أصدق، أهتف:

. أنتِ من سورية؟

تشرق ضحكتها، تتكلم:

. نعم.

الدموع تتفجر من العيون، أصيح:

. وأنا من سورية.

أصــافحها، أودُّ معانقتها، أشــم رائحة ســورية، ترابَها أرضَــها سماءَها شعبها كله.

. منذ متى أنت هنا؟

. من سنة.

. أنا هنا منذ ثلاثة أشهر فقط.

أشرب السحر من عينيها، أجد فيها أهلي وأصحابي ووطني، أحس أني بدأت أستعيد نضارتي وحيويتي، أسألها:

ــ أنت تأقلمت مع الغربة، أراك مرحة، وابتسامتك رائعة، هل تعلمتِ الألمانية بسرعة؟ ساعديني كي أتعلمها مثلك.

تعلوها مسحة من اكتئاب شفيف، تتكلم:

ـــ هذا في الظاهر، في الداخل شيء آخر، ماذا أفعل؟ هذا التمثال هو أنا التي في داخلي، لا تنظر إلى الخارج.

تصمت، تمسك يدي، تهتف:

. تعال لأريك صورة تمثال آخر.

نمضـــي معا إلى مقهى على الرصـــيف، تخرج من حقيبتها صـــورة لتمثال، وهي إلى جانبه، تقول لي وهي تشـــير إلى كلمات منقوشة أسفل التمثال، تتكلم، وهي تنطق الكلمات كلمة كلمة:

ــ أقمت ...في هذه المدينة ...عشر سنوات...ما أزال أحس ....بالغربة.

تمثال أقبح من التمثال الســابق، هل هو رمز القبح؟ هل هو كل آلام الغربة قد عصــرت وتحجرت فأصــبحت هذا النصــب، لا التمثال، الذي لا أكاد أفهم منه شيئًا.

أسألها:

. ما اسم الفنان؟

. لم يكتب اسمه.

. نسي كتابته.

ترسل زفرة، ترد شعرها إلى وراء، تتكلم:

ــ لا، ما نسي كتابته، قل: نسي اسمه كله، غدا ترى، تنسى هنا اسمك.

أقول لها:

. لا، أنا مهند، وأنت مريم.

تنظر في وجهي مدهوشة، تسأل بابتسامة تملأ وجهها، كأنها ارتاحت إلى سماع اسمها:

– نعم، مريم، وهنا ينادونني ميريام، كيف عرفت اسمي؟

– مريم، قرأته هنا مطبوعًا على حقيبة يدك، اطمئني، لن ننسى أسماءنا.

وأنا أتناول طعام الغداء مع الأسرة يتصل بي صديقي نذير، ليقول لي:

- جهز نفسك فورًا، سأكون أمام باب العمارة خلال عشر دقائق، ستذهب معي إلى فيلا عزيز بك.

وأسأله:

- فاجأتني، ما سبب هذه الزيارة.
- لا تسألني الآن، عندما نصل ستعرف كل شيء.

ويغلق الخط.

ما معنى هذا كله؟ صوته متقطع، كأنه يلهث، وكيف سيكون أمام باب العمارة خلال عشر دقائق، هل هو قريب من بيتي؟ في كل مرة لا يصل إليَّ إلا بعد ثلث ساعة على الأقل.

*

يحدثني صديقي نذير دائما عن صديقه عزيز بك ويدعوني إلى زيارته، ويلحُّ علي، ويذكر لي أنه قد خصص في الفيلا غرفة واسعة يعرض فيها تحفًا وآثارًا رائعة لا تقدَّر بثمن، ويذكر أن كبار الصحفيين والإعلاميين من أوربة يزورونه، ولاسيما من فرنسا وإنكلترة، ليطلعوا على التحف والآثار التي ورث أكثرها عن أبيه وجده، في حين اشترى بعضها بأثمان عالية، ويؤكد أن ثمنها مع

الأيام سيتضاعف أضعافًا، حتى إنه يفكر في بيع الفيلا وشراء دار قديمة في حيّ من الأحياء الشعبية ليعرض فيها ما عنده من الآثار والتحف، وهو يرغب في تخصيص كل غرفة من غرف تلك الدار لنوع من التحف، وهو عازم على الحصول على ترخيص من الجهات المعنية لتسمية الدار باسم جده الأول، ويؤكد لي صديقي نذير في كل زيارة لي أنني لو زرت معه فيلا صديقه عزيز ورأيت التحف والآثار لأوحت لي بكتابة قصة جديدة لم أكتب مثلها من قبل.

ومرت الأيام، ولم يعد صديقي نذير يحدِّثني عن صديقه عزيز بك، ويبدو أنه ملَّ من دعوتي إلى زيارته، فلم يعد إلى ذكره لي، ودفعني الفضول ذات يوم فقلت له:

- ما أخبار صديقك عزيز بك؟

ففرح بالسؤال، وبادر إلى القول:

- آخر مرة زرته فيها الأسبوع الماضي، هو مقبل على شراء دار قديمة في حي شعبي، ولا أعرف إذا كان قد نفذ فكرته، ما رأيك في زيارته الآن؟ أود زيارته للاطمئنان عليه، ويسرني أن ترافقني، ويسره أن يسمع رأيك في فكرته.

فقلت له:

- لا بأس، لكن، لم نأخذ منه موعدًا.

فثارت حماســـة صـــديقي، وهو المعجب بصـــديقه عزيز بك، أو بالأحرى معجب بتحفه، وقال لي:

- هو رجل قعيد الفيلا، لا يغادرها، ويسر بالزيارات المفاجئة، أكثر من سروره بالزيارات المحددة مسبقًا، هيا، لننهض.
- فلنتصل به بالهاتف.

ضحك صديقي، وقال:

- الفيلا تقع في الريف، وليس عنده هاتف.
- نتصل بالهاتف الجوال.
- ليس عنده هاتف جوال، لا يحب الأشياء الحديثة.

قلت له:

- لكني على موعد مع الطبيب، وســـيمر بي ابني ليأخذني بسيارته.
- زيارتنا لن تطول، سنذهب بسيارتي، وأرجع بك، من غير تأخير.

وانطلقنا إلى زيارة السيد عزيز بك.

رحب بنا الرجل أجمل ترحيب، وبدا عليه كأنه يعرفني منذ قرن من الزمن، ولا شك في أن صديقي نذير هو الذي حدثه عني من قبل، ودعانا الرجل إلى غرفة الضيوف، وقال لنا:

- نشرب القهوة أولا، ثم نزور متحف الآثار والتحف.

واقترح عليه صديقي نذير:

- بل نزور أولا صالة العرض.

عزيز بك شيخ عجوز، طاعن في السن، في نحو السبعين، ولكن، يبدو كأنه في التسعين، هو نفسه في هيئته يبدو كأنه تمثال في متحف، يرتدي معطفًا رماديَّ اللون من الزي الفرنسي الذي يرتديه المحققون في الأفلام البوليسية القديمة، ونسميه ترانشكوت، ويعتمر قبعة من النوع الذي يرتديه الصيادون والمستكشفون في الأدغال، ويضع نظارة مدورة العدسات لا أعرف كيف ثبتها على أرنبة أنفه، وليس لها ذراعان، وهو طويل القامة، محنيُّ الظهر، يتوكأ على عصا معدنية مقبضها من فضة كأنها صولجان، ويأتي صوته مبحوحًا خافتًا من عمق حنجرته، حتى يكاد يغيب.

فتح عزيز بك باب الصالة، وقال لي:

- تفضل بصحبة صديقك نذير، تجوَّلْ معه بحرية، وتعرَّفْ بنفسك على الآثار والتحف، وأنا أستأذنكم، سأعد لكم القهوة بنفسي.

وتدخل صديقي نذير:

- بل ابق أنت مع الأستاذ، وأنا سأعد القهوة.

وفي الحقيقة أشفقت على عينيه وعلى ظهره وعلى صوته، ووددت لو يقعد، ويتركني أتجول وحدي، لكنه أبى إلا التطواف معي، وهو يميل على كل قطعة، ويتكلم بصوت ضعيف.

- هذه مدفأة حطب سيرميك، صنع إنكلترة، عام ١٨٠٠، دفع لي هاوي تحف مثلي خمسمئة ألف ليرة ثمنًا لها، فما

بعتُها، وهذه طنجرة بخار ضغط صنع إنكلترة عام ١٨٥٠، وهذه صحون بللور بورسلان تشيكية أصلية.

ورفع رأسه، وأشار بالعصا إلى مرآة جدارية بطول مترين وعرض متر ونصف تقريبًا، صافية متألقة، محاطة بإطار خشبي، حفرت فيه رسوم عريشتي عنب تتدلى منهما العناقيد، رأيت صورتنا منعكسة في زجاجها الصافي، وظهر لي فمه الواسع، المنشقّ عن شفتين رقيقتين جدًّا كأنما أذابتهما الأيام، وتأكد لي أنه ليس في فمه أي سن، وهو يتكلم فيقول:

- وهذه مرآة حجرية تشيكية عمرها أكثر من مئتي سنَّة، محجَّرة، لم تصدأ، ولم تؤثر فيها رطوبة، وهذا لوكس صنع السويد، وهذا وابور كاز صنع السويد.

ثم استند إلى آلة خياطة ذات أرجل، وقال:

- هذه ماكينة خياطة ماركة سنجر صنع عام ١٧٨٠ هي أول ما كينة خياطة تدخل إلى البلد، اقتنتها جدة جدي، أو ربما أمها.

ثم لمس بأصابعه مفاتيح آلة كاتبة، وقال:

- هذه آلة كاتبة، من نوع برذر عمرها مئة وخمسون عاما.

ثم أشار بعصاه إلى مكواة سوداء، وقال:

- هذه مكواة تعمل بالفحم، تضع جمرات الفحم في داخلها، وتكوي بها الثياب، وهي صنع فرنسا، وهذه مكواة أخرى لكن بالكهرباء، وهي أحدث، عمرها حوالي سبعين عامًا،

هي من صـــنع إنكلترة، لكن لا تعتبر حتى الآن من التحف، أي قطعة لا تعتبر تحفة إلا إذا مر عليها مئة عام.

ووضع يده على كتفي، ثم توجهنا إلى منضدة خشبية فاخرة، يتربع فوقها غرامافون ببوقه الجميل، وإلى جواره صندوق فيه أسطوانات تزيد عن الخمســـين، وإلى جوار الغرامافون راديو، يلمس البوق، ويقول:

- هذه كنا نسميها سمَّاعة، وهي معروفة بالغرامافون، وكنا ندوِّر هذه الذراع، ونضـــع هنا الأســـطوانة، هي ما تزال تعمل، لكن إبرتها أصـــبحت خشـــنة، وهي تخدش الأسطوانات، بحثت عند كل هواة التحف عن إبر خاصة بهذا النوع من الغرامافونات، فلم أعثر.

ويرسل زفرة، ثم يقول:

- خسارة.

ثم يتجه نحو الراديو، ويضع يده عليه، ويتكلم فيقول:

- هذه راديو فيليبس، بأربع موجات، ما تزال صالحة للعمل، فيها تحويل، يمكن أن تعمل على توتر ١١٠، ويمكن أن تعمل على توتر ٢٢٠، وهي تعمل بنظام اللمبات، كان أبي يقعد إلى جوارها يستمع إلى الأخبار، كنت وأنا طالب في الجامعة أســتمع إليها، ثم اشــتريت راديو ترانزيســتور تعمل بالبطارية وبالكهرباء، هي جزء من تاريخي.

وإلى جوار الراديو تقف مروحة كهربائية صـــغيرة، يقف أمامها ويقول:

- لو كنا في الصـــيف، لجعلت هذه المروحة تدور، ما تزال تعمل، هواؤها ناعم هادئ كالنســـيم، ليس كمراوح هذه الأيام، ولا تحتاج معها إلى مكيف.

ثم انتقلنا إلى زاوية من الصالة واسعة، حيث منضدة طويلة صفت عليها زجاجات عطر من أنواع وأشكال وحجوم مختلفة:

- هذه زجاجات عطر باريسية، شانيل، وفوتشي، وستيلا، وشـــوبارد، ورالف لورين، وأنواع أخرى من ديور...وهناك أنواع نسيت أسماءها، لكنها مسجلة على الزجاجات.

ثم أشار إلى إطار خشبي مزخرف عريض معلق على الجدار، فوق زجاجات العطور، وقال:

- هذا الإطار كان يحتوي صـورة لوالد جدي، ولكن الرطوبة أكلتها، أعطيتها لمصور لينسخ عنها، فلم ينجح، نقعها في محلول، محا الصـــورة، ولم يبق ســـوى الورق، هل أرفع شكوى ضده؟ لا فائدة.

وينتشـر في الصـالة عبق القهوة، وألتفت فأرى صـديقي نذير وهو يدخل حاملًا القهوة، وهو يقول:

- أقترح أن نعود إلى غرفة الضيوف لنشرب القهوة.

أوافقه على الفور، مشفقا على العجوز.

ونحن نحتسي القهوة، يتكلم الرجل العجوز، فيقول:

- من المؤســف، لا أحد يقدر هنا هوايتي، لا صـــحافة ولا تلفزيون ولا زوَّار، مع أن كبـار الصـــحفيين والأدبـاء والمستشرقين يأتون من بلادهم البعيدة لزيارة هذه الصالة، ولعل صـــديقك حدثك عن فكرتي، أرغب في شـــراء دار قديمة، في حي شعبي، لأضـع فيها آثاري التي أعتز بها، وتحفي، وأجعلها هبة للوطن، هي جزء من تاريخنا، آثارنا تدل علينا.

علقت بهدوء:

- لكن، أكثر هذه الآثار من المصـنوعات الأوربية، وخاصـة الفرنسية والإنكليزية والتشيكية.

يرد مؤكِّدًا:

- نعم، صدقت، لكنها تمثل مرحلة من تاريخنا.

لم نكد نفرغ من شـــرب القهوة، حتى رن هاتفي الجوال، وإذ بابني يذكرني بموعدي مع الطبيب.

ألتفت إلى الســـيد عزيز بك أعتذر إليه عن قِصَـــر الزيارة، وأعده بزيارة أخرى في وقت قريب.

أظهر الرجل أسفه، أشار إلى هاتفي الجوال، ثم قال:

- هذه الأجهزة اللعينة أفسـدت علينا حياتنا، لذلك، أنا أعيش هنا منعزلًا عن الناس مع آثاري.

يقف مسـتندًا على عصـاه، يعلو وجهه الاكتئاب، يضـع يده على كتفي، يتكلم بهدوء:

- بصـــراحة، أجد نفســـي أتردد في العودة إلى الحي القديم والاختلاط بـالنـاس، أفكر أحيـانـا ببيع كـل هـذه التحف والآثار، أحس بوجودها كأنه عبء، لا أحد يقدر، ولا أحد يهتم، صدقني، أفكر أحيانًا بتحطيمها وحرقها كلها، أو نذير يقاطعه:

- لا تفكر مثـل هـذا التفكير، أفنيـت عمرك في جمعهـا، ونذرت لها حياتك، وأنفقت فيها أموالك، هي جزء منك.

وعند الباب، وهو يودعنا، يضـــغط على يدي، ويقول، وهو يغير لهجته:

- حدثني الأســـتاذ نذير عنك كثيرًا، وذكر لي أنك كاتب قصـــة، أتمنى أن تكون زيارتك لي قد أوحت لك بقصـــة، أتمنى أن تكتبها.

في طريق العودة، وصديقي يقود السيارة، سألته:

- كيف يعيش الرجل هنا وحده؟

أجابني بكل بساطة:

- هذه هي حياته، هو سـليل أسـرة أرسـتقراطية، كما رأيت، وهناك تحف وأشياء أخرى كثيرة، ورث أكثرها عن جدوده.

- وزوجته وأولاده؟

عاش عمره كله عَزَبًا، لم يتزوج، ولم يُنْجِبْ.

بعد قليل من الصمت، سألني:

- هل ستكتب عنه قصة؟

- نعم.
- وما عنوانها؟
- حائر لا أعرف.

*

ولا أعرف لماذا يدعوني اليوم فجأة صـــديقي نذير إلى زيارته؟ ولم يمض على زيارتنا له سـوى بضـعة أيام، أو ربما أسـبوع، هل من جديد؟ هل اشـــترى تحفة جديدة؟ هل زاره وفد إعلامي؟ هل باع الفيلا؟

وينطلق صديقي نذير بسيارته إلى فيلا عزيز بك، وأنا إلى جواره. يقود بسرعة، وليس من عادته، وهو قلق متجهم الوجه.

أسأله:

- أخبرني، ما ذا حدث؟
- ستعرف كل شيء حين نصل.

وينعطف في الطريق الفرعيـة، المؤديـة إلى الفيلا، على بعد نحو ثلاثة كيلو مترات، وهو يزيد من سرعته.

هي في الحقيقة ليســت فيلا، إنما هي دار متواضـــعة، تتألف من طابقين، بالقرب من الفيلا قرية صـــغيرة لا يزيد عدد سـكانها عن عشـرة آلاف نسـمة، يعملون في الزراعة ورعي الغنم، وعلى مبعدة من الفيلا، خيام غجر متنقلين.

مع انحدارنا من الهضـبة المطلة على الفيلا، أرى سـيارة إسـعاف، وثلاث سيارات للشرطة، وجمعًا من الناس، أمام الفيلا.

*

فور وصـــولنا تدافع نحونا بضـــعة رجال من القرية، كانوا يعرفون صديقي، وانهالت علينا تعليقاتهم:

- أنا أخبرتك، أستاذ نذير، وأخبرت الشرطة.
- ثلاثة أيام وما خرج من الفيلا.
- وما جاء إلينا في القرية.
- من عادته شراء كل يوم الخبز والحليب.
- أنا شممت رائحة غير طبيعية.
- لصوص دخلوا الفيلا، حطموا كل التحف.
- وقتلوا الرجل.
- وشنقوه بحبل.
- وعلقوه بالسقف.
- وما سرقوا أي شيء.

*

أنتحي جانبا بصديقي، أسأله:

. هل تشك في أهل القرية؟

يجيبني:

. أهل القرية طيبون، يحضرون له الحليب واللبن والدجاج ولحم الغنم وخبز التنور، كل يوم، هو كان يحكي لي ذلك، وكان يدفع لهم أكثر مما يطلبون، وإن كانوا يتعففون ولا يريدون أخذ الثمن، فهم كرماء طيبون.

. والغجر، هل تشك فيهم؟

ـ الغجر لا يرتكبون الجرائم، الغجر طيبون جدا، الغجر يحبون الحياة، كان عزيز بك نفسه يحدثني عنهم، قال إنهم يعيشون حياة رفاهية، وليسوا بالفقراء، كما يظن كثير من الناس، وذكر أنه يرى كثيرًا من السيارات تزورهم بعد منتصف الليل، حيث يقيمون في خيامهم سهرات الطرب، وكان هو نفسه يسهر عندهم بين حين وآخر، وأكد لي أنهم كانوا يكرمونه.

*

ونتوجه إلى سيارة الشرطة، نسأل الضابط، فيجيب:

- الرجل في الظاهر مصاب بمرض نفسي، يائس من الحياة، حطم كل شيء، ثم شنق نفسه، فور دخولنا رأيناه مدلى من السقف بحبل مشدود على عنقه، وتحت رجليه كرسي مقلوب.

ويصمت ثم يضيف:

ـــ لا يوجد كسر لباب، ولا نافذة، الفيلا حتمًا لم تقتحم، وليس في جسمه أي أثر لهجوم، الرجل على الأغلب شنق نفسه.

هدية العيد والتفوق

تسمع باب الشقة وهو يُفْتَح، كانت تنتظره منذ ساعة، تسرع إليه:

– أهلا، حبيبي منير، تأخرت؟ كل هذا الوقت وأنت في النادي الرياض؟ قلت لك لا أحب كمال الأجسام، هو تشويه للجسم.

يرد وهو يتوجه إلى المطبخ:

– لا نادي، ولا كمال أجسام، هنئيني أمي، باركي لي.

– ما الجديد؟

– سأحصل على منحة أمريكية للدراسة في هوليود.

تدق يدها على صدرها، وتصيح:

– هوليود؟ هكذا مباشرة، وهل تحصل على منحة وأنت أمس حصلت على الشهادة الإعدادية؟ ولم تحصل بعد حتى على وثيقة النجاح؟ لا أصدق!

– ادخلي إلى الشبكة، واكتبي: "منح أمريكية للشباب أصحاب المواهب دون الثامنة عشرة"، هذا وصولي من السفارة الأمريكية، ملأت الاستمارة على الحاسوب، مباشرة، وأجريت مقابلة، عرض عليَّ الموظف الكلام بالعربية، ووعد هو بالترجمة، وملء الاستمارة، كنت أكلمه بالإنكليزية، أصابته الدهشة، قلت له:

سأدرس فن الإخراج، سأشتغل في السينما، قلت له: أنا مصطفى العقاد رقم ٢.

– احصل على الشهادة الثانوية، وسافر.

ويرد:

– تكفيني شهادة الدراسة الإعدادية، أحصل على الثانوية هناك، عندهم عدة اختصاصات في الشهادة الثانوية، هناك شهادة خاصـــة بالفنون، لا علوم ولا رياضـــيات، ولا فيزياء ولا كيمياء، شهادة ثانوية من أجل الإخراج السينمائي.

ويضيف:

– هناك في سنة واحدة أحصل على الشهادة الثانوية، هنا تقاطعه:

– وتترك أمك؟

– بعد سنة، أبدأ العمل، إلى جانب المنحة الدراسية، أرسل في طلبك.

– وعيادتي؟ والمستشفى الذي أعمل فيه؟

– بيعي العيـادة، فرص العمـل متوفرة في أمريكـا، واختصاصك مطلوب في كل مكان في العالم.

– وعيادة والدك التي تنتظرك؟ كل حلمي وحلم والدك، الله يرحمه، حصولك على التخصص في الجراحة لتعمل في عيادته.

يدق يده على الجدار، يرفع صوته، ويتكلم:

– أمي، لا أريد الطب، أنت طبيبة، وأبي طبيب، وأنا طبيب؟ هل الطب وراثة؟ ولماذا يجب أن أكون مثل أبي؟ لكي أموت مثله في الأربعين؟ هو طبيب ولم يعرف كيف يعالج نفسه؟ كرهت الطب، كرهت العلاج، كرهت أبي، كرهته، لماذا مات وتركني.

يصمت، ثم يتكلم بلهجة ألطف:

– أمي، إلى متى سنظل هنا في الممر، أنا جائع.

تمسك يده، تشده إلى غرفته:

– أنت أنسيتني كل شيء، قبل الطعام، تعال، ادخل إلى غرفتك، وانظر: ماذا على السرير؟

يمضي إلى غرفته، يلقي نظرة على السرير.

بدلة من اللون الأزرق القاتم، أسفلها حذاء أسود فاخر، قميص أبيض، تتوسَّطه ربطة عنق حمراء.

*

تريدني رجلا في الستين، ولماذا أرتدي هذه البدلة، وما المناسبة؟ وإذا كنت الأول على مدينتي، في امتحان الشهادة الإعدادية، فماذا يعني هذا؟ أحتاج بعدها إلى ثلاث سنوات في الثانوية، وخمس سنوات، في الجامعة، بل ست سنوات، وبعدها أربع سنوات للتخصص، "يجب أن تكون طبيبًا جراحًا مثل أبيك، العيادة تنتظرك"، هذا كلامها دائمًا، وغدًا، أول يوم العيد، "يجب أن تزور قبر أبيك بهذه البدلة الرسمية، لتقول له: أنا رجل".

*

يلتفت، يهم بالمضـي إلى المطبخ، من غير أن يقول شيئًا، لكنها تضع يدها في مدخل الباب، تسده عليه، وتقول له:

– انظر ماذا في الكيس هناك فوق الوسادة.

يعلق:

– أعرف، بدلة ثانية صفراء.

تترقرق الدموع في عينيها، تبلع غصتها:

– ولدي حبيبي، هل تشك في ذوق أمك؟

– لا أشك في ذوقك، يعجبني، لكن، سامحيني، ماما، أنت لا يعجبك ذوقي.

*

ليتها ما اشترتْ هذه البدلة، لا أعرف كم دفعتْ ثمنها، كان يمكنها فتح خزانة أبي، وتناولني واحدة من بدلاته، "أنا أخبئ كل ثيابه لك، سـتكبر، وتكون في طوله، مثله، وسـترتدي كل ثيابه"، هكذا تقول لي دائمًا، وهي تحتفظ بثيابه كلها، نعم، وسـوف أدخل في خزانته وأنام فيها، أمس رأيت في نومي أفعى تخرج من خزانة أبي، عيناها تلتمعان، هممتُ بقتلها، لكن تركْتُها تمر بسلام، رأيتها تبكي، كانت الدموع تنزل من عينيها، لم أقتلها.

*

– ادخل، تعال، انظر ماذا في الكيس، فوق الوسادة.

– ولماذا ما نشرته على السرير، بجوار توأمه الأزرق، هو بدلة صفراء، ماذا يمكن أن يكون؟

*

لن أنفعل، ولن أغضـــب، الصـــبر، أنت وحيدي، أفديك بروحي، يجب ألا أتأثر بك، أو أنفعل، يجب أن أكون أنا المؤثرة فيك، الصـبر، سـت سـنوات بعد وفاة أبيك، تعلمت الصـبر، كل الصـبر، منذ صـغرك وأنت عنيد مشـاكس، لا يعجبك شـيء، ولا تفعل إلا ما يروق لك، صريح، عنيد.

*

– ابني، منير، حبيبي، لا تســتعجل، أنت انظر: ماذا في الكيس.

يرد بحياد:

– واضح من العلامة المسجلة على الكيس الورقي الفاخر، ومن اسـم المحل، هو المحل نفسـه الذي اشـريتِ أنت منه البدلة الزرقاء، بالتأكيد، ليس فيه بنطلون جينز ممزق عند الركبة، ولا تي شيرت، ولا نظارة شمسية إطارها أبيض، هذا كل ما أشتهيه.

تتجه إلى الكيس، توليه ظهرها، تمســح دموعًا جالت في عينيها، ثم تلتفت إليه حاملة الكيس، لتنثر ما فيه على الفراش.

منير يحملق في الأشـــياء المتنـاثرة، فوق الفراش، يقف مبهوتًا، ثم يندفع نحو أمه ليعانقها.

– ماما، حبيبتي، سامحيني.

ويضيف:

– تي شـــيرت، وبنطلون جينز ممزق عند الركبة، ونظارة، وحتى صـــــندل بني، كيف عرفت رغباتي كلها؟ وكيف عرفت مقاييسي؟

– أنا ربيتك، شبرًا شبرًا، وكيف لا أعرف مقاييسك؟ أعرف تفاصيل جسمك كله، أعرف كل مقاييسك.

تضمه إليها، تعانقه، تغرس أصابعها في شعره المرفوع إلى أعلى مثل هرم، يُفْلِتُ من بين يديها، وهو يقول:

– أفسدتِ تسريحة شعري، أمضيت ساعتين في الكوافير أنتظر دوري، وساعة حتى استطاع الحلاق تثبيته.

تضحك، تعلق:

– أنا سأعيده منتصبًا إلى أعلى مثل عرف الديك، وعندي مثبت شعر قوي، لا تقلق.

وتصمت، ثم تضيف:

– ولكن، لماذا هذه اللحية الســـوداء الطويلة، والله، هي نشاز، غير مناسبة.

يرد ببرود:

– هكذا كل الشـــباب، الانســـجام والتناســـب وكل ما هو معروف ومريح للنظر صار من القديم، غير مطلوب، الآن كل ما هو مطلوب التنافر والفوضـــــى والإثارة، الغاية لفت النظر، قولي الغاية هي الصدمة.

ويصمت ثم يضيف:

– هذا ما تريده الصـــبايا، هذه ذوق بنات اليوم، أنت من جيل

تلتفت إليه، يصمت، ترميه بنظرة.

*

آه منك، يا منير، ومن الجيل الجديد، هل أخطأت أنا؟ أحببت والدك، وأنا في الســنة الأولى من الجامعة، عمري أقل من العشــرين، وهو في الســنة الرابعة، وجئتَ أنت، وأنا في الســنة الثانيـة، ثم قررنـا أن نكتفي بولـد واحـد، هل الزواج يجعلني من الجيل القديم، وهل تسـريحة شـعرك تجعلك من الجيل الجديد؟ وما مرت عشر سنوات حتى مات أبوك، نعم، أصـبحت من جيل قديم لأني ربيتك، وصـبرت على تربيتك سـت سـنوات، بعد وفاة أبيك، هل هذا يجعلني من الجيل القديم، آه.

*

تمضي نحو المطبخ، كأنها لم تسمعه، وهي تقول له:

– الغداء جاهز، بدل ثيابك، واتبعني إلى المطبخ.

ويأتيها صوته:

– هل أرتـدي البـدلـة الزرقـاء، وآتي إلى المطبخ لتنـاول الغداء.

تمسح دموعها، وهي تعلق:

– أنت تعرف، في التاسعة سيأتي خالك بهجت وزوجته، وخالك عماد، وابن خالي شاكر، ومعه ابنته الصغيرة شكران، يا إلهي، شكران ما أحلاها، سيأتي الجميع بمناسبة نجاحك، وتفوقك، اشتريت للحفلة قالب كاتو، لا شك، معهم هدايا فاخرة.

يقف في باب المطبخ، يسأل:

– ماما، لماذا طلق شاكر زوجته؟ ولماذا لا يترك شكران لأمها؟ رعاية البنت من حق الأم، حتى التاسعة، وسمعت حتى الثانية عشرة، وشكران طفلة في التاسعة.

الأم ترد بعصبية، وهي تضع الصحون عل المائدة:

– لا أعرف، لا أعرف، لماذا كل هذه الأسئلة.

يسأل:

– ماما، كان شاكر ابن خالك يحبك، وتقدم إلى خطبتك، وأنت في الثانوية، هكذا سمعت، هل هذا صحيح؟ لكن جدي، قال له: البنت ستتابع دراستها.

ترد:

– نعم، هذا صحيح، وهو عادي، البنت يتقدم إلى خطبتها كثير من الشبان، لكن أنا أحببت والدك، وتزوجنا عن حب، انس هذا، تعال ساعدني.

يدخل إلى المطبخ، ليساعدها في وضع الطعام، تسأله بهدوء، وهي توليه ظهرها:

– هل حقا ستسافر إلى أمريكا.

– نعم.

– عمك في ميتشيغان هو الذي حرضك.

يلتفت إليها، يترك المائدة:

– أمي، لا عمي، ولا خالي، أنا اخترت، أنا قررت، لا صلة بيني ولا بين عمي، ولو صرت في أمريكا، صدقيني، لن أزوره، أنا وحدي، طول عمري وحدي، أحس بالحرية، قراري هو قراري، أنا أشكرك لأنك لم تنجبي غيري.

*

لكن ضجرت، مللت، وحدي، وحدي، أتمنى لو عندي أخ واحد أكبر مني، لو عندي أخت، عندي عشرة أصدقاء، عشرون، هم إخوة، كل واحد منهم أكثر من أخ، آه، لو كان عندي أخت، كل الصديقات اللواتي حولي لا يشبعن رغبتي في وجود أخت، مشاعر الأخت مختلفة، لماذا قرر أبي الاكتفاء بولد واحد، ولماذا تركني ومات؟

*

تغرس الشوكة في قطعة اللحم، ترفعها إلى فمها.

كرهت نفسي، كرهت الطب، لا أكاد أراك، لولا عطلة العيد ما أمضيت هذين اليومين معك، دائمًا أنا في العيادة، وأبوك، لم أعش معه سوى عشر سنين، وما كنا نلتقي، هو في عيادته وفي المستشفى، وأنا في عيادتي وفي المستشفى، ست سنوات عشتها بعده، لولاك أنت كانت الوحدة قتلتني، أنت تستطيع أن تتمرد

وتقول: "لا"، أنا لا أســتطيع، أنا طبيبة ناجحة، يا إلهي، كم أحب أن أكون عازفة كمان، لا طب ولا مشـفى ولا مرضـى، ولكن كيف تســـافر وتتركني؟ ألا يكفيني والدك، تركني ومات، وأنت تتركني وتسافر، تجعلني أموت مرتين، وأنا ما أزل في الخامسة والثلاثين، ليتني ما أحببت والدك، ليتني ما تزوجت.

*

تبلع اللقمة بصعوبة، تقول له:

– انس الآن كل شيء، دعنا نهنأ بالغداء.

يتكلم:

– أمي، قبل يومين رأيت في الحلم أشياء مزعجة.

– حدثني.

– دخلت إلى محل أريد شـراء قميص، بائع عجوز يعرض عليَّ ما يشـــبه المعاطف البالية المتهرئة، يقول لي: هذا آخر ما تبقى في المحل، ويهم بوضـعه على كتفي، رائحة المعطف كريهة، هو عتيق ممزق، وأصحو مستاء، ملامح البائع غير واضحة.

تضحك تعلق:

– حلمك تحقق في الواقع، لكن على عكس الحلم، الأحلام دائما تتحقق بصورة معاكسة، المعطف هو البدلة الزرقاء.

يبتلع اللقمة، يعلق:

– لا، أنا غير مقتنع، أنا مستاء، لا أحب الأحلام.

ينهض يحضر من الثلاجة زجاجة ماء، يصب في الكأس لأمه، وهو يقول:

– ماما، بائع المعطف، حملني المعطف عند الباب، كأنه يجبرني عليه، وهو يقول لي: هذا المعطف لأمك، ثم يناولني دمية صغيرة، ويقول لي: هذه هدية لك.

الأم تضحك، تضحك كثيرًا، تقهقه، تتكلم:

– قلت لك اليوم مساء سيأتي أهلي كلهم، ومعهم هدايا نجاحك، وهدايا العيد، وسنتناول الحلوى، وستقسم أنت قالب الكاتو.

منير يطرق، يتأمل الصحن، لا يكاد يبتلع اللقمة، يسأل:

– وهل هناك شيء آخر، لماذا لا يأتون غدًا؟ غدًا أول أيام العيد.

– اليوم يأتون للتهنئة بنجاحك، والتفوق، وغدا يأتون للتهنئة بالعيد.

يتكلم وهو شارد:

– أحلام دائمًا مزعجة، هي كوابيس، ليتني أحلم بأمريكا.

الأم تضيف:

– الأحلام، هي خيالات، أوهام، لا تفكر فيها، لا معنى لها ولا تفسير.

منير يرفع رأسه يتكلم:

– اليوم رأيت أشياء أخرى مزعجة أكثر.

– حدثني

– نافذة الغرفة عندنا رأيتها تطل على بركة، والماء مرتفع إلى حافة البركة.

– هذا رزق من الله، هو خير.

– ورأيتك تقفزين من النافذة في البركة، وأنت في ثياب السباحة.

تضحك، تعلق:

– أنا لا أعرف السباحة، طول عمري ما جربت.

– رأيتك غصتِ، غبتِ تحت الماء، بدأتُ أصيح، ثم رأيت حزام حمالة صدرك يطفو على سطح الماء.

تضحك، تضيف:

– أكلني القرش، هذا يعني أنه كُتِبَ لي عمر جديد، لا تقلق، هي حياة جديدة.

– لم يكن في البركة سمك قرش.

– أنا تخيلته، أحب سمك القرش، وأعرف أنه لطيف، وليس وحشيًا كما يتوهم الناس.

– أنا أكره سمك القرش، هو متوحش، أتمنى صيده، وإبادته.

*

قرش، وشاكر سيأتي مساء، وشكران، هي تحب القرش، هو لطيف، الآن عرفت، هو حقيقة مثل القرش، أكرهه، أكره شكران، أكره شاكر.

*

في الشرفة المطلة على حديقة الفيلا، يشربان الشاي عقب الغداء، والببغاء إلى جوارهما في قفصه الكبير، الرابض فوق سور الشرفة.

تسأله:

– حبيبي منير، أود سؤالك، بصراحة، هل تجيبني بصدق؟

يضع كأس الشاي، ينهض، يستند إلى سور الشرفة، ينقر بإصبعه على قفص الببغاء، الببغاء يصيح:

– مريض، مريض.

منير يتكلم:

– ماما، وهل كذبت عليك من قبل؟

– لا

– إذن اسألي، لا أحب هذه المقدمات.

– اقعد، واشرب.

– لن أشرب، حتى أعرف سؤالك.

الأم تنهض، تقف قبالة ابنها، والقفص بينهما:

– أين السلحفاة؟ بحثت عنها في كل أطراف الحديقة، وما وجدتها.

الببغاء يصيح:

– ندى، ندى.

منير يعلق، وهو يتوجه نحو الببغاء:

– غبي، هذه ماما، ماما، ماما، ماما، ندى راحت.

الببغاء يصيح:

– مريض، مريض، دواء.

*

طبيب، وطبيبة، وأنا سـأكون طبيبًا، كما تريد القبيلة كلها، والببغاء لا يعرف غير دواء، مريض، ندى، كلمات تعلمها في عيادة أبي، لا يعرف غيرها، أبي يموت، وجدّي يعيش حتى الآن، وهو في الخامسة والتسعين، أبي يموت وهو في الأربعين، وبعد ذلك تقول لي وجود سلحفاة في البيت يطيل العمر؟ لا أعرف كيف تتحمل وجود الببغاء، وهو ينادي: ندى، ندى.

*

يعود إلى مكانه أمام المنضدة، في الشرفة، يرفع إلى فمه كأس الشاي، يبتسم، يجيبها بهدوء:

– أمي، وأنا سأسألك، وأريد الجواب، بالله عليك، ألا يبعث هذا الببغاء في نفسك أي قدر ولو قليل من الغيرة، وهو يصيح: ندى، ندى.

تضحك، تنقر بإصبعها القفص، ثم تعود إلى المنضدة، ترشف من الشاي رشفة، تتكلم:

– هو ذكرى من والدك، سأحتفظ به طول عمري، ولا يهمني ولو صاح ندى ألف مرة، أعرف: ندى كانت ممرضة عنده، ممرضة عجوز، في الستين.

تعود إلى المائدة، تأخذ رشفة من الشاي، وتسأل بهدوء:

– والآن، أخبرني عن السلحفاة، أين خبأتها؟

– اطمئني، هي بخير، ما تزال تأكل، عندها طعام أكثر مما نطعمها نحن.

– أين هي؟

– أرجوك لا تغضبي، ستعيش هناك خمسمئة سنة، كما قلت.

– أين خبأتها؟ منير، أرجوك، هذه سلحفاتي أنا، أبي اشتراها يوم ولادتي، هي من عمري.

– ما خبأتها، بعد قليل ستكون في مكان أوسع، وسيكون عندها طعام كثير، كثير جدًا.

– رميتها في الحديقة العامة؟

يضحك، يضحك، يرشف بقية ما في كأسه من شاي، ينهض، ينظر إلى ما وراء سور الحديقة، يمرر إصبعه على قضبان القفص، وهو يقول:

– انظري، الآن تمر سيارة القمامة، تحملها إلى المقلب، ستعيش هناك ألف عام، اطمئني.

تنهض وهي تضع كأسها على المنضدة:

– هل رميتها في حاوية القمامة؟

الببغاء يصيح:

– مريض، ندى، ندى.

الأم تتكلم:

– ليتك أطلقت الببغاء، وتركتها.

يمد يده إلى باب القفص، يفتحه، تضـــع يدها على يدها، تهمس:

– لا، حبيبي، اتركه، هو ذكرى من والدك، اتركه أرجوك، هو لك، ســـتتخرج في كلية الطب، عيادة أبيك تنتظرك، والببغاء فيها، هو في انتظار العودة معك إلى العيادة.

*

سأحمله معي في الطائرة إلى أمريكا، وهناك سأجعله بطل أول فيلم أقوم بإخراجه، ســـأجعل عنوانه: "الأطباء والببغاء والسلحفاة"، لكن أين السلحفاة الآن؟ خسارة أضعتها، سأجد سلحفاة أمريكية.

*

في المساء أمام قالب الكاتو يلتف الجميع.

منير يصرّح:

– لا، لن أقسمه إلى نصفين، فقط سأقتطع منه قطعة لأمي، وثانية لي، ثم سأترك السكين، وكل واحد يمكنه اقتطاع ما يشاء.

شاكر يتقدم منه، يمد يده إليه، وهو يقول:

– أنا وأنت سنقسم معا قالب الكاتو، هذه يدي فوق يدك.

ثم يلتفت إلى ابنته شكران، يقول لها:

– تعالي شـكران، قفي إلى جانب منير، ضـعي يدك فوق يده، لنشترك نحن الثلاثة في الفرحة، ونقسم القالب.

ويتدخل هشام، والد شاكر، ليقول:

– وأنت، دكتورة هند، ضـعي يدك معهم، اشـتركوا في قسم الكاتو.

*

شـــكران هي الدمية التي أهداني إياها بائع المعاطف، يا إلهي كم تشبهها، هي تشبهها تمامًا. يوم توفي أبي، ضمَّني شاكر إليه، كنت في عمر ابنته الآن، وكان عمرها أربع ســـنوات، قال لي: اعتبرني مثل والدك، ســتعيش مع شــكران، هي أختك، وأنت أخوها. يدي ترتعش، جسمي كله يرتعش، يلقي السكين، يصرخ:

– لن يقســم القالب أحد، لن أفرح، لا بالعيد، ولا بالنجاح، احملوا هداياكم، هيا ارحلوا.

يقلب المنضـدة، قالب الكاتو يطير في الهواء، تتناثر قطعه على الوجوه، تغطي الأنوف والعيون، تغطي وجه شاكر، يتمنى لو كان المعطف العتيق بيده ليغطي به وجه شاكر، ليخنقه به.

*

ينتبه إلى أمه وهي تتكلم:

– لا، شـــكرًا، يا ابن خالتي، هي فرحتنا جميعًا، نعم، لا شك، ولكن أنا وابني منير وحدنا، سنقسم قالب الكاتو.

ثم تلتفت إلى ابنها، تقول:

– حبيبي منير، خذ السكين، وهذه يدي أضعها فوق يدك، أنا وأنت سنقسم قالب الكاتو، وستكون أول قطعة لشكران الصغيرة.

*

ما الذي يزعجه، يده باردة، يا إلهي، لم يكن ينقصه سوى ثلاث علامات في اللغة العربية ليكون الأول على المحافظات كلها، وليحظى بمكافأة ومنحة من الدولة وراتب مدى الحياة، يا إلهي. لا أعرف لماذا منذ البداية لم يرحب بشـــاكر، ولا ابنته، ما ذنب الطفلة، تقدم له هديتها يقول لها: ضعيها هناك على الطاولة، أعطيها لماما. وشاكر مدَّ إليه يده، صافحه ببرود، أراد تقبيله على خديه، فاعتذر، وقال: أنا مزكوم. ما ذنبي إذا كنت قد صـــارحته، وقلت له: نعم شـــاكر تقدم إلى خطبتي وأنا في الثانوية، هو ابن خالي، عادي، وأنا لا أحبه.

*

خاله بهجت يلتفت إلى شكران، يقول لها:

– حبيبتي شـــكران، قفي إلى جانب منير، حتى نلتقط الصور، مثل عروس وعريس.

منير ينتقل إلى الطرف الآخر، ويرد:

– شــكرا خالي بهجت، لا أريد التقاط ولا صــورة، انا أكره الصور.

بهجت يرد:

– ولكنك في كل يوم تنزل في الفيس بوك صـــورك أنت والأصدقاء.

– أنا والأصــدقاء، نعم، ولكن شــكران ليســت صــديقتي، وليست في عمري.

بهجت يعلق:

– شكران تحبك، ووالدها يحبك، وهي في العاشرة وأنت في الســادســة عشــرة، قريبة من عمرك، ولمَّا قلنا لها ســنحتفل بنجاح منير فرحت.

منير يرد بعصبية:

– لا أريد، قلت لكم لا أريد.

بهجت يتكلم:

– حبيبي، منير، شكران هي مثلك، من غير أم، وأنت من غير أب.

منير يصيح:

– لا، هذا غير صـــحيح، شـــكران لها أم، وأمها موجودة، العتب على الأب، شاكر هو الذي طلق الأم، وأخذ البنت.

يصمت، ثم يصيح:

– أنا لا أريدكم، ولا أريد هداياكم، خذوها كلها، حتى أمي ما عدت أريدها، روحوا خذوها معكم، أنا غدًا مسافر إلى أمريكا.

يلقي قطعة الكاتو من يده، ويسرع إلى الداخل، يغلق على نفسه باب غرفته.

*

الأم تركض نحوه، تدق عليه الباب:

– حبيبي منير، حبيبي، والله لن أتركك، سأسافر معك.

شاكر يمسك يد ابنته، يلتفت إلى الدكتورة هند ليقول لها:

– دكتورة هند، سامحيني، واعتذري مني إلى منير.

ويهم بالخروج، بهجت يقول له:

– انتظر، سنخرج كلنا.

بهجت يقترب من الأم، يضع يده على كتفها:

– هل حدثتِ أنت ابنك بأي شيء عن شاكر وابنته.

تلتفت إليه والدموع تملأ عينيها:

– لا، والله، لكن هو أحس، عرف، قبل أسبوع، في الزيارة السابقة، تكلمتم أنتم على الموضوع بالتلميح، وهو عرف، منير ذكي.

يتكلم بهجت:

– كانت مجرد فكرة أولية، شاكر يرعى منير، وشكران تعيش برعايتك، وبالحلال ننشئ أسرة جديدة، حسبي الله ونعم

الوكيل، على كل حال، يمكنك بالهدوء إقناعه، ســـنتركك الآن، نزورك غدًا، صباح العيد، كل عام وأنت بخير.

المعلم بنيان

دخل إلى غرفته، هي غرفة الجلوس والضـــيوف وغرفة المكتب، ثلاثـة جـدران مملوءة برفوف الكتـب، وغرفـة أخرى لنومـه هو وزوجتـه، وثالثة لنوم صـــبيين وبنتين، وقد بلغت الكبيرة الثانية عشرة، والبقية دونها بفارق سنتين.

داره تتألف من ثلاث غرف، مسـاحتها مئة متر، هي علبة كبريت، لا يدخلها ضــوء ولا هواء ولا شــمس، ولا تطلُّ لا على شــارع ولا على حديقة، الأبنية المتراصة حولها تسدُّ عليها حتى السماء.

أدرك حقيقة أنه قد بلغ الخامسة والأربعين، ولم يحقِّق شيئًا.

أكثر من عشرين سنة أمضاها في التعليم، وها هو ذا لم يحقِّق أيَّ شيء.

راوده هذا الشـــعور من قبل مرات عدة، ولكنه في كل مرة كان يوجِّهه، أو يقمعه.

لكنه اليوم سيطر عليه، واستبدَّ به.

بل تحول إلى فكرة، قرر تنفيذها.

جمع دفاتر العلامات التي خبأها طوال عمله في التعليم، وأخذ يقلِّبها وينظر فيها.

في كل سـنة عندك سـت شـعب، في كل شـعبة أربعون طالبًا، وأحيانًا خمسـة وأربعون، في كل سـنة عندك مئتان وأربعون طالبًا، بل مئتان وخمسون، في عشرين سنة علَّمت خمسئمة ألف طالب، نصف مليون.

فتح الدفاتر، ناداهم، جمعهم، حشرهم في غرفته الصغيرة جميعًا.

عيون مفتوحة وبطون كبيرة ولغد تحت الذقون، سياراتهم غُصَّ بها الشـارع، هذا طبيب وآخر مهندس، وثالث وزير، ورابع مدير عام، وخامس تاجر كبير، وووووو.

- لماذا جمعتنا؟
- أنا معلمكم.
- ما أفدتنا في شيء.
- رسـمت لكم أجمل الخرائط، حدثتكم عن الجبال والأنهار والبحار والسـهول والوديان والمحاصـيل وشـبكة الطرق، حدثتكم عن عواصم العالم وعن المدن الكبرى.

وجاءته الردود كالجراد تأكل وجهه:

- حشوت دماغنا بمعلومات لم تفدنا في شيء.
- كلُّه كلام في الهواء.
- التلفزيون اليوم يعلم أولادنا في سـاعة ما علمتنا إياه في عشرين عامًا.
- شـبكة المعلوماتية تعطينا في ثوان أكثر مما أعطيتنا أنت وكل المعلمين من أمثالك.

يحطمون الجدار ويخرجون، تتداعى رفوف الكتب، وتسقط.

*

حقًا، لقد بلغت الخامسة والأربعين، ولكن يمكنني بدء حياة جديدة، يمكنني أن أفعل كل شـــيء، يمكنني تغيير العالم، النبي محمَّد صـــلى الله عليه وســـلم نزل عليه الوحي وهو في الأربعين، فغيَّر العالم كلَّه، الوحي جاءني متأخرًا خمس سنوات، سأعوِّض كل ما فات.

يســرع إلى الوزارة، يقدم اســتقالته، يأخذ تعويضــاته، يقترض من المصرف، يدخل على تاجر بناء، يدفع له المبلغ كله، يشتري شقة في بناء قيد الإنشـاء، بعد بضـعة أشـهر يبيع الشـقة بضـعف ما اشتراها.

يشتري شقة أخرى كسابقتها، يبيعها بعد بضعة أشهر بأضعاف ما اشتراها، يكرِّر العملية، يعيدها.

يشتري أرضا، يشيد بناء.

ربحه دائمًا أربعة أضعاف الكلفة، وأحيانًا خمسة أضعاف.

يشتري أراضي، بين ساعة وساعة يبيعها، فيربح.

يشتري شققًا، بين عشية وضحاها يبيعها، فيربح أضعافًا مضاعفة.

أخوه، جاره، صديقه، تلميذه السابق، يبيعهم بأسعار أكثر مما يبيع الآخرين، لا بدَّ من أن يكون الربح أربعة أضعاف، بل خمسة، بل ستة.

هذا هو الكســـب الحلال، ذكائي، وتعبي، ومالي، ومغامرتي، قد أخسر في صفقة كل شيء.
لكن الله معي.
الحمد لله، هذه أرزاقي.
فيلا خاصة به وبأولاده.
مزرعة خاصة.
شاليه على شاطئ رملي ساحر.
دار واسعة في الجبل للصيف.
سيارة له، سيارة لزوجته.
رصيد كبير في المصرف باسمه، وآخر باسم زوجته.
شقة لكل ولد من أولاده الأربعة، فقد كبروا.
محلات تجارية.
فندق في قلب المدينة وثلاثة مطاعم.
*
لم ينس المكتبة، لم ينس الكتب.
خصَّص غرفة كبيرة من غرف الفيلا للكتب، خزائن خشبية فاخرة، كتب مجلدة، اشتراها قديمة، ثم جلدها وخطَّ اسمه عليها بحروف مذهبة، علَّق في صدر المكتبة على الجدار خريطة كبيرة، رسمها بنفسه، حدَّد فيها مواقع العمارات التي بناها، والشقق التي اشتراها، والعقارات التي هي ملكه، كتب تحتها: "أملاك المعلم بنيان"، كان اسمه "نافع"، لكنَّه غيره، فجعله "بنيان".

عيَّن موظفة خاصة في المكتبة، قال لها:
ــ اكتبي رواية عن حياتي وضعي لها عنوانا: "حياة المعلم بنيان"، سأنشرها، وفي المقدمة سأشكر لك طباعتها على الكومبيوتر، ولا بأس، ضعي فيها قصة حب متخيلة، لكن من غير فحش، واجعلي البطل يتزوجها، وضعي اسما للبطلة هو اسم زوجتي.
بحث عن فنان مغمور، طلب منه أن يرسم له صورة نصفية كبيرة، علَّقها في صدر المكتبة فوق الخريطة، نفحه بضع ليرات، ووعده أن يمنحه صالة كبيرة ليعرض فيها أعماله، إن صنع له تمثالًا، وانهمك الفنان في صنع التمثال، فوضعه في البهو عند مدخَل الفيلا.
وبثمن بخس استطاع شراء مستودع مهجور تحت إحدى العمارات، تأكل جدرانه الرطوبة والعفونة، طلاه بالدهان، قسمه إلى ثلاثة أقسام، قسم صغير جعله شقة للمعيشة، وقسم صغير للعمل، وجعل القسم الباقي صالة عرض، أجَّر الأقسام كلها للفنان مقابل مبلغ ليس بالقليل.
*
ذات مرة سأل الفنان، وهو يزوره في معرض أقامه في الصالة:
- كم لوحة يجب أن يكون عند الفنان حتى يعرض لوحاته في معرض فردي خاص؟
أجابه الفنان بعفوية:
- لا يقل عن ثلاثين لوحة.

يعلق بثقة وهو يمسح بطنه المدورة بيده:

- عندي صور لأكثر من أربعين عمارة فخمة بنيتها بنفسي، عدا العمارات التي شـــاركت تاجرًا أو تاجرين في بنائها، سأقيم معرضًا، في صالتك.

قهقه عاليًا، ثم أضاف:

- وستأتيني باقات ورود أكثر من الباقات التي جاءتك.

وربت على كتف الفنان ثم أضاف:

- وسأدفع لك أجرة الصالة، أو أعفيك من أجرة شهر.

رد الفنان بخجل:

- الصـــالة ملكك، ســيدي، وأنا ضـــيفك، والأجرة الشـــهرية محفوظة، وهي من حقك.

*

أســس شــركة "المعلم بنيان للبناء والتعمير"، رأســمالها مليار، فتح مشـــاريع لبناء مجمعات ســكنية، تعاقد مع جمعيات ســكنية، بيع الأراضي والعقارات وشراؤها، الاتجار بكل شيء.

أسس نقابة لتجار البناء، أصبح هو رئيسها.

دعا كبار الأطباء والمهندسين والتجار والمسؤولين وبعض الوزراء ممن كانوا طلابه سابقًا.

أقام لهم حفلا باهرًا في مزرعته الواسعة.

طعام وشرب ورقص وغناء وهدايا تذكارية ثمينة.

في آخر الحفل أخرج دفاتر العلامات وأخذ يقرأ عليهم العلامات التي كان كلٌ واحد منهم قد استحقها يوم كانوا تلاميذ عنده في الصف، كانوا جميعًا من الكسالى وممن أضاف إليهم علامات مساعدة لينجحوا.

*

ذات يوم يقصد إدارة الشركة زميل له في التعليم، يريد استئجار شقة، لم يكن يعلم أن المعلم نافع هو نفسه المعلم بنيان مدير الشركة، تستقبله السكرتيرة، تعتذر إليه، ليس لدينا شقق للاستئجار، يلح عليها طالبًا مقابلة المدير، تتصل به:

- مواطن يريد استئجار شقة، أخبرته: ليس لدينا شقق للاستئجار، لكنه يلح في الطلب.

يأذن له في الدخول، على الفور يعرف كل منهما الآخر، كيف لا وقد كانا زميلين معا في مدرسة واحدة لأكثر من عشرين عامًا، وها قد مرت عشرون سنة أخرى لم يلتقيا فيها.

المعلم نافع تغيَّر، لكن زميله لم يتغيَّر.

يبادره المعلم بنيان بالقول:

- أوه، أنت وصلتَ إلى التقاعد، وما تزال تنتقل من دار بالأجرة إلى دار بالأجرة، ما استطعتَ طوال عملك في التعليم شراء شقة؟ كان الله في عونك.

يصمت، ثم يضيف مقطب الجبين مشمئزًّا كأنه يبتلع الحامض:

- اعذرني، كل الشــقق التي أبنيها فاخرة، ليس عندي شــقق للاستئجار.

زميله ينهض، وقبل أن يغادره، يقول له، وهو يبتسم:

- ليس من الضــروري أن يملك كلُّ إنســان شــقة، يمكن أن يعيش الإنسان طوال عمره في شقة مستأجرة، لا عيبَ في هذا.

داخل المقبرة ...خارج المقبرة

صـــفائح من رخام، بعضـــها فوق بعض، في مدرجات، تحمل نقوشًا باذخة، تحمل أبياتًا شعرية، تحمل آيات قرآنية، تحمل أسماء أشخاص وتواريخ.

حجارة بيضاء مصقولة، تحمل بعض ما تحمل الصفائح الرخامية.

حجارة صغيرة دون سابقتها، تكتفي بحمل أسماء وتواريخ.

حجارة مبعثرة، حجارة متكســـرة، حجارة مقلوبة، حجارة حجارة حجارة.

تنهض بين الحجارة أعشاب ونباتات وأشواك، وقد تنهض هنا وهناك شجرة باسقة.

عند جثوة من تراب يجثو شـــيخ كفيف أعمى يتلو آيات قرآنية يؤديها بصوت يصطنع الحزن فيه، يخطئ تارة وتارة ينسى كلمة، فما هو بالحافظ.

وإلى جواره تقف صبية في ثياب سود، تكفكف دموعها.

أغنام تدخل فترعى.

أولاد يدخلون فيلعبون ويختبئون.

وفي الليل تجار يجربون بنادقهم ومسدساتهم أمام المشترين.

بائعون ومشترون يتبادلون بضائع خاصة.

تحت هذا كله ترقد أجساد ورمم ورفات أقوام لا يُعْرَفُ إن كانوا يحسون بما يجري فوقهم أو لا يحسون.

*

يجوس بقدميه بين الصفائح والحجارة، يحاول ألا يدوس بقدمه فوقها.

يهم بمد يده إلى علبة سجائره، لكنه سرعان ما يتراجع.

يلمح الصبية في ثياب الحداد، وجهها قمر، فيغض الطرف عنها.

يلمح عصفورًا يقف على رأس صفيحة مرمرية، سرعان ما يطير، يتبعه بأنظاره وهو يحلق في أجواء الفضاء، يتمنى لو يلحق به ويعلو ويعلو.

يلتفت إلى الرجل الذي يسير وراءه خطوة خطوة، يهمس له:

- انتبه، لا تطأ بقدمك أي قبر، اجعل خطواتك كلها فوق التراب، واجعلها هادئة ناعمة، هنا يرقد جدودك.

ويصمت، ثم يضيف:

- للقبور قوانينها وأعرافها وأصولها، مثل المديرية، بل أكثر، هل تعرف هذا؟

- أمرك، سيدي.

يستل السيكارة من جيبه، ثم يلتفت إليه ويقول له، وهو يقهقه:

- هات قداحتك، وأشعل لي السيكارة.

ينفث الدخان وهو يعلق مبتسما:

– التدخين هنا وحده مسموح.

*

يصل إلى بقعة شبه خالية إلا من الأعشاب، يتوسطها قبر باذخ، يقف أمام صفائح رخامية يعلو بعضها فوق بعض، مزينة بنقوش وزخارف، تحمل آيات قرآنية.

يلتفت إلى الرجل الواقف وراءه على بعد خطوتين.

- هذا قبر والدي.
- يرحمه الله
- الأسبوع القادم ذكرى مرور سنة على وفاته.
- نعم، سيدي، أذكر ذلك، وأحفظ تاريخ.

يقاطعه:

- لا تكثر من الكلام، تبني هنا خيمة، وتحضر القراء والمنشدين، وتبسط السجاجيد، وتمسح صفائح الرخام، وتطلي الآيات والاسم بطلاء أخضر، لا أحب هذا اللون الأسود، ولا تنس مكبرات الصوت، وباقات الزهور.
- حاضر، سيدي.
- أب مثل أبي يستحق هذا الوفاء.

- طبعا سيدي، بل يستحق أكثر، رباك فأحسن

يقاطعه بحدة وهو يشير بيده:

- لا تكثر من الكلام.

*

خارج باب المقبرة يفتح له المرافق الباب الخلفي، يغلقه وراءه بهدوء، ثم يدخل المرافق إلى جانب السائق.

- رضوان، أغلق تسجيل القرآن الكريم، هل تظن نفسك خازن الجنان؟ الآن خرجنا من المقبرة، افتح على الأخبار المحلية.
- سيدي كنت أستمع إليها، لا جديد، لكن هناك تسريبات بأن السيد الوزير سيزور المديرية العامة.
- هذا أكيد، وعندي موعد مسبق للاجتماع به، سأدوس على رأس المدير العام، اعتبره من الآن طار.
- سمعت سيعين سفيرًا في
- نعم، سيعين سفيرًا إلى يوم القيامة، هنا في المقبرة، وعن قريب نزوره إن شاء الله، ونبارك له، نبرك على قبره.

وتمر أمامهما قطة، فيدوس السائق على المكابح، وترتج السيارة في وقفة مفاجئة.

- ما هذا يا رضوان؟ لماذا دست على المكابح، كان يجب أن تدوس القطة، ما أدارك، لعلها مؤامرة، هل نسيت قصة الكلب الذي قطع الشارع أمام سيارة كيندي، كانت حيلة

من أجل قنصـــه، هل تريد أن يقنصـــوني، أعداؤنا كثر يا رضـوان، لا تسـتعجل الذهاب بي إلى الجنة، هل صـدقت إذا قلت لك مفاتيحها بيدك؟

وهو يخرج من الشـــارع الضـــيق متجاوزًا ســـور المقبرة، ليدخل في الشاعر العام، يقول للسائق وهو يقهقه:

- انتبه، قف هناك أمام تلك المرأة، رأيتها منذ قليل أمام قبر زوجها وهي تكفكف دموعها، تبدو وحيدة، وليس لديها أحد، من واجبي مد يد العون لها، لا يجوز تركها وحيدة.

المرافق يعلق:

- ســـيدي، عندك مثلها كثير، اترك القليل لغيرك، وهي لا تناسبك، لا بد من أن تحدثك عن المرحوم زوجها، وتفسد عليك السرور.

يربت على كتف مرافقه، وهو وراءه في المقعد الخلفي، ثم يقول:

- صدقت، لا نريد مخلفات المقابر.

السائق يسأل وهو ينطلق بسرعة، ينظر في المرآة المعلقة أمامه، ويسأل:

- ســـيدي متى تصـــادف الذكرى الســـنوية لوفاة الوالد الله يرحمه؟
- في مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم.

- أعرف، في مثل هذا اليوم كان التشـــييع، لكن المرحوم توفي قبل أربعة أيام، وحده في الشـــقة، وما أحد أحس به غير الجيران.

المدير يرد:

– هل تصـدق كلام الجيران، وتكذب شـهادة الطبيب؟ أنا بنفسي أحضرتها له من طبيب المحافظة، الله يرحمه، ربى فأحسن التربية.

*

ينظر عبر الزجـاج إلى بـاب المـديريـة، المرافق يفتح لـه الباب، يلتفت إلى السائق قبل أن ينزل، يصيح به:

– خذ السيارة إلى المغسلة، علق بها غبار المقبرة، وأعط مفاتيحها لخالد، اعتبره من اليوم سائقي، وأنت استلم بدلا منه المسؤولية عن غسلها.

*

خارج السيارة يرسل زفرة كأنه خارج من قبر.

الله يحرقك ويحرقه في قبره، يســـتأهل، تتفســـخ جثته وتحترق، ما رباني ولا أحسن تربيتي، تركني أنا وأمي وثلاثة إخوة صـــغار، تركنا للجوع والمرض والفقر، وتزوج واحدة بعمر أولاده، الله يحرقه في قبره، يسـتأهل، وهي سـلبته أرضـه وأرزاقه، وهربت، وهو، نعم، مثل مـا قلـت، عـاش وحـده، ولولا الجيران، مـا عرف بموتـه أحـد، إلا بعـد مـا طلعـت ريحتـه، وأنـا، والله لولا أني في

منصـب نائب المدير العام، ما كنت مشـيت في جنازته، وما كنت صـنعت له هذا القبر من رخام، لا يليق به، لكن من أجل سـمعتي ومكانتي، ولا أنسـى عندما زرته مرة، وهو في حضـن زوجته، كنت في الصـف الخامس، طلبت منه عشـر ليرات رسـوم التسـجيل في المدرسة، قال لي: اذهب، خسارة فيك الأكل والشرب، أنت لا تنفع في شـــيء، ربيت في الأزقة والشـــوارع، وما تعلمت غير الســـرقة والكذب، وما عرفت غير الشـذوذ والتشـرد، أنا لا أنفع في شـيء؟ ولكن، الأسبوع القادم سأحتفل على قبرك، وأنا المدير العام.

الشيخ صالح

احتج عليه أهل الحي جميعًا، من أصحاب المحلات والعربات والبسطات التي تملأ الشارع الذي يقع فيه المسجد، كما احتج عليه سكان الحي أنفسهم.

كان قد أخذ يؤذن أمام باب المسجد.

هو مسجد صغير، يقع في شارع ضيق، تنهض على جوانبه محلات صغيرة، وتقف إلى جوار أرصفته عربات وبسطات كثيرة، يعمل فيه الشيخ صالح مؤذنًا، كان في الأصل خادمًا في المسجد، ثم توفي المؤذن، فعمل مؤذنًا بدلًا منه، ينام في المسجد، ويعيش فيه، هو رجل أرمل، ليس له زوجة، ولا أولاد، في نحو الخمسين، يجود عليه أهل الحي بالصدقات، ويستعين به أصحاب المحلات ببعض الخدمات، مقابل أجور بسيطة، يساعد محل الأغذية على تنزيل البضاعة من الشاحنة، ويمسح الواجهة الزجاجية لمحل الألبسة، ويساعد بائع العصير، ويجمع علب الكرتون الفارغة من الصيدلية، ولا يتردد في تلبية أي مساعدة، وفي الصباح يقف مع الأطفال الصغار على الرصيف، يمسك أيديهم ريثما تأتي سيارة الروضة لأخذهم، ويوصل بعضهم إلى بيوتهم، عند عودتهم.

وفوق المحلات والدكاكين تنهض أبنية من طابق واحد وأحيانا من طابقين، تكتظ بشقق صغيرة، وهو لا يتردد في شراء الحاجات لبعض الأسر، يحملها إليهم بنفسه، وهو موضع ثقة، بل يشتري لهم الحاجات بأرخص مما يشترونها هم.

وأكثر الأوقات يمضيها في دكان النجار.

النجار عجوز، دكانه تقع قبالة باب المسجد، وكثيرًا ما يساعده في نشر القطع الخشبية الكبيرة، يتعب العجوز في نشرها، فيأخذ منه المنشار اليدوي، ويبدأ في تقطيعها.

شقة العجوز فوق دكانه، المئذنة تطل على نافذتها الوحيدة، والمئذنة قديمة، ليست عالية، لكنها تطل على الشرفات والنوافذ في الشقق المحيطة بها، بعض درجاتها مكسور، وبعضها الآخر مزعزع.

كانت حجة الشيخ صالح في الأذان أمام باب المسجد، لا في المئذنة، أن في داخل المئذنة أوكارًا، وثغرات، وفيها أفاعٍ وعقارب، وهي معتمة.

وسرعان ما تبرع أهل الحي، وخلال يومين قام ثلاثة عمال بطلاء المئذنة من الداخل بالإسمنت، وسدوا الثغرات، وركبوا المصابيح في داخلها.

وعاد إلى الصعود إلى المئذنة.

ولم يمض سوى أسبوع حتى عاد إلى رفع الأذان أمام باب المسجد، وحجته هذه المرة بأن الجو بارد، وحنجرته جافة، وصوته مبحوح، وسرعان ما زوده صيدلي الحي بالدواء.

ثم اقترح عليهم هو نفسه أن يضعوا مكبرات صوت في المئذنة، ويؤذن في غرفة خاصة، ويصل الصوت إلى أماكن بعيدة، فاحتج أهل الحي بأن صوت المكبر قوي، وفيه علو، وهو مزعج، ولا سيما في وجود بيوت كثيرة في الحي تطل عليها المئذنة، وسوف يكون الأذان بالمكبر مزعجا للسكان.

وعاد المؤذن لرفع الأذان أمام باب المسجد. وحجته هذه المرة بأنه يحس بالدوار عندما يصعد إلى المئذنة، ويؤذن في شرفتها المستديرة، وأسرع الصيدلي إلى تزويده بأدوية تعالج الدوار.

وعاد إلى رفع الأذان أمام باب المسجد.

واقترح بعض أصحاب المحلات الطلب إلى مديرية الأوقاف تعيين مؤذن آخر بدلا منه.

واعترض آخرون، وطالبوا بإبقائه، واحتج جميعهم بأخلاقه الحسنة، وسمعته الطيبة، فهو عفيف شريف، وهو مسكين، لا مأوى له، وهذا المسجد يوفر له المأوى، بل كان من حجج بعضهم في المطالبة بإبقائه هو صوته الحسن، بل طالب بعضهم بأن يصعد إلى المئذنة كي لا يحرموا من صوته الحسن، الذي يصل إلى بيوتهم ومساكنهم.

*

وذات يوم، وبينما هو يؤذن للظهيرة في شـــرفة المئذنة، سـقط من الشـرفة، هوى، وهوت معه قطعة من الدرابزين الخشـبي المحيط بالشرفة، وأسرع رجال الإسعاف، ومع وصولهم كان الرجل قد أصبح جثة هامدة.

حزن أهل الحي جميعًا.

الدرابزين الخشبي هو سبب سقوطه، خشب قديم مهترئ بفعل الأمطار والرياح، ولعل الشـــيخ صـــالح أحس بالدوار، فاتكأ عليه، فهوى.

هكذا فسـر أهل الحي وأصـحاب المحلات سـبب سـقوط الشيخ صالح.

وسرعان ما طلبوا من أبو العاص النجار إصـلاح القطعة المحطمة من الدرابزين.

لكن تفسيرا آخر كان لدى النجار أبو العاص.

تفحص أبو العاص القطعة الواقعة من الدرابزين، وما هي بالقديمة، ولا المهترئة، وهو الذي يعمل في كل بضـــع سـنين على تبديل بعض عوارضها ودعمها بعوارض جديدة.

واضـــــح تمـامـا أن القطعـة كـانـت مقطوعـة من جـانبين بالمنشار، عن عمد، كي تسقط، وكان يكفي أن تضربها ريح حتى تسقط.

قبل يومين من الحادثة دخل عليه الشـــيخ صـــالح في المحل، رآه وهو يسن أسنان المنشار بالمبرد، سنا بعد سن، عمل

متعب، وممل، أقســم عليه إلا أن يقوم هو بالعمل منه، فنزل عند رغبته، ثم اقترح عليه أن يترك له المنشـار والمبرد، ليسـنه ليلا في المســجد، لأن الليل طويل، وهو وحيد، ويحس بالأرق، فوافق أبو العاص.

الشـيخ صــالح هو الذي نشــر الدرابزين من طرفين، لم يسقط إذن، وإنما انتحر.

أســرع أبو العـاص في اليوم التـالي إلى حمـل قطعـة الدرابزين، وصعد بها إلى المئذنة، عرض عليه بعض شباب الحي المســاعدة، فاعتذر إليهم، وأكد لهم أن هذا هو عمله، وهو قادر على القيام به وحده.

ودار في الشـرفة المحيطة بالمئذنة، وفي الموضــع الذي ســقطت فيه القطعة وقف، فإذا الموضــع مقابل لنافذة غرفة نومه المطلة على الشـارع، ونظر فرأى زوجته مسـتلقية في الفراش شـبه عارية، وأحست به، فنهضت على الفور، وتسترت بملاءة الفراش، وغابت في الداخل.

بهدوء ثبَّت القطعة في موضــعها، ودق فيها مســامير طويلة داعمة، ثم أسرع إلى زوجته غيداء يسألها عن سبب انتحار الشيخ صالح.

ضحكت، بل قهقهت، وقالت:

- مسكين، شيخ تقي، ورع، وينتحر، شيء لا يصدق؟

- غيداء، أنت السبب.

وأمام إلحاحه، وضعت يديها في خاصرتيها، اعترفت:

- نعم، أنا السبب، أحببته، لكن، والله، الرجل عفيف، كنت أقف له بالنافذة، وليس بيني وبينه أي شيء، رجل مجنون، ما أراد خيانتك.

وتتغنج أمامه، وهي تقول:

- اذبحني، إذا قلبك طاوعك، والله بريئة.

أبو العاص يذهل، يرتعش جسمه، يغلق قبضة يده، يعض على شفته، تصطك أسنانه.

غيداء تصيح به:

- ستخبر الشرطة؟ أنا بريئة، أنت ستعدم، أنت أعطيته المنشار، سأقول لهم أنت نشرت الدرابزين من الطرفين ليسقط المؤذن، ويموت.

- هو نشره.

- أعرف، ليموت وهو بريء، رجل شريف.

صمت أبو العاص، ولم يستطع النطق بكلمة.

*

أبو العاص يحب زوجته، ولا يستطيع الاستغناء عنها، فليس له أحد في الدنيا سواها، لا أم ولا أخت ولا ولد، وهي صبية ممشوقة القوام، شهية الجسد، في الأربعين، لكنها تحتفظ بفورة الجسد.

أبو العاص النجار عجوز في السبعين، بيته يقع فوق دكانه، حسناء هي زوجته الثالثة، لم يرزق بولد، تزوج قبلها اثنتين، عاش مع الأولى أربع سنين، ولم يرزق بولد، طلبت منه الطلاق، فطلقها مُكْرَهًا، ثم تزوج أسماء، هي ابنة عمه، أرغمها أبوها على الزواج منه، عسى أن يرزقه الله منها بولد، صبرت عليه ست سنوات، ثم عرض عليها هو الطلاق، عرف أنه لن يرزق بولد، فقبلت، وبقي من غير زوجة حتى بلغ الخامسة والستين، فتزوج غيداء، أرملة، في الأربعين، توفي عنها زوجها قبل خمسة عشر عامًا، يوم كانت في الخامسة والعشرين، ترك لها ولدين، ربتهما، ثم وجدت في أبو العاص السكن والمأوى، وهي تعلم أنه عقيم، وهي لم تكن تطمع في الإنجاب.

*

أكد أبو العاص لأصحاب المحلات أن الخشب في الدرابزين مهترئ، بفعل الريح والأمطار، ودعم تفسيره بأن المؤذن أصيب بدوار وسقط على الأرض.

وبعد بضعة أيام جرى تعيين مؤذن شاب، في الثلاثين من عمره، وفرح به أهل الحي وأصحاب المحلات، وأخذ يصعد كل يوم إلى المئذنة، ويطوف في الشرفة ويرسل صوته إلى الجهات كلها.

كان عزَبًا، عرضوا عليه المبيت في المسجد، فوافق، وبدأ أصحاب المحلات يستعينون به، ويطلبون منه بعض الخدمات،

وكان قويًّا، قادرًا على خدمتهم. وفورًا حل محل الشيخ صالح، بل كانوا في كثير من الحالات ينادونه: "الشيخ صالح"، مع أن اسمه أحمد.

أبو العاص في محله، ينظر إلى المؤذن وهو في شرفة المئذنة، يؤذن، ويطيل في الأذان، يراه يقف طويلا عند الدرابزين، حيث سقط المؤذن السابق.

ويسرع إلى شقته فوق المحل، فيراها أمام النافذة تتظاهر بتهوية الغرفة مرة، وأخرى بنفض الملاءات، وثالثة بمسح الزجاج، يصمت، ويرجع إلى المحل، ولا يستطيع قول كلمة.

ذات مرة قال لها:

- غيداء، أحبك، وأغار عليك.

وتميل برأسها، تمد له رقبتها وهي تقول:

- القلب وما يهوى، إذا كنت تغار عليَّ اذبحني، اشنقني.

*

ذات صباح، طلب النجار أبو العاص من الشيخ الشاب الجديد أن يعطيه مفتاح باب المئذنة، قال له:

. أريد تثبيت الدعامات الخشبية في الدرابزين بالمسامير.

وحمل عدته وصعد.

في ظهيرة اليوم نفسه، وبينما كان المؤذن الجديد في الشرفة يؤذن لصلاة الظهيرة، وإذ به يهوي، وتسقط معه قطعة من الدرابزين.

ذهل أهل الحي، وقبل أن تصل سيارة الإسعاف كان الرجل قد فارق الحياة.

أسرع بعض أهل الحي إلى قطعة الدرابزين، أخذوا يتفحصونها، ثم أسرعوا إلى المئذنة، فرأوا القطعة قد نشرت من جانبيها بالمنشار.

وأسرعوا إلى محل النجار، كان مغلقا، نادَوا زوجته، فأطلت عليهم، وعندما سألوها عن زوجها، أكدت لهم أنه في الدكان.

كسروا باب الدكان، فوجدوه يتدلى من السقف بحبل مشدود على عنقه، وثمة كرسي منزاح أسفل قدميه.

غيداء ذرفت كل ما عندها من دموع.

راديو جدي...والمعلم آكوب

لا أعرف لماذا فكرت بحمل الراديو إلى المصلح.
حين انتقلت من دار جدي القديمة في حي العقبة في القسم الشرقي القديم من المدينة، إلى الشقة الجديدة في حي الشهباء بالقسم الغربي الحديث من المدينة، تخليت عن أشياء كثيرة مما كنت أحتفظ به من موروثات جدي، كنت تحتفظ بطربوشه ومعطفه وعصاه ونظارته الطبية وبمظلته، وبأشياء أخرى كثيرة، تخليت عنها كلها، فقط حملت معي ذلك الراديو الكهربائي القديم من نوع فيليبس، الذي طالما كنت أستمع إليه، وطالما كان يزعجني تشويشه، فهو لا يلتقط المحطات صافية، وقد تخليت عنه منذ أكثر من ثلاثين سنة، تركته في السقيفة حيث الأشياء المهملة.
حملته اليوم ومضيت به إلى مصلح المسجلات والهواتف والراديوهات في جادة الخندق، دلني عليه أحد الأصدقاء.
أدهشني محله، بل أدهشني هو.
يكاد يكون في عمر جدي، يرحمه الله.
على عينيه نظارة سميكة، ذراعها مكسورة، شدها بخيط إلى أذنه، والعدسة اليسرى متشعبة، لا أعرف كيف يرى من خلالها، محدودب الظهر، شعره أبيض، لم تسقط منه شعره، يكلمني وهو مكب على العمل.

يكلمني والسيجارة في زاوية فمه:

- ضعه هناك على الرف، وراجعني الأسبوع القادم، في مثل هذا اليوم.

حاولت أن أشرح له، فأشار:

- أنا سأتفحصه، وأعرف ماذا به.

على المنضدة أمامه منفضة سكائر بلاستيكية محترقة الأطراف، من طول ما وضع على جوانبها السجائر، وهي ممتلئة بالرماد وببقايا السجائر، كأنه ما أفرغها من شهر، حتى على سطح المنضدة أمامه مواضع احتراق، كأنه كان يضع السيجارة على المنضدة، وهو يعمل، فيحترق الخشب.

خرجت مستاء، لكن يجب أن أصبر.

محله قديم، من عمر جد جدي، كل المحلات من حوله جرى تحديثها، إلا محله، رفوف خشبية قديمة، مهترئة، محنية، مسجلات متراكم بعضها فوق بعض، راديوهات كثيرة، من مختلف الحجوم والأنواع، راديوهات كهربائية قديمة، راديوهات ترانزيستور حديثة، كأن أصحابها جاؤوا بها للتصليح، ثم ما رجعوا ليسألوا عنها، هواتف من أنواع مختلفة.

ما كنت أتوقع أن يصلح الراديو بحضوري، وما توقعت أن يقول ارجع بعد أسبوع، توقعت أن يقول ارجع بعد يومين. مهما يكن، فأنا لست في عجلة من أمري، ولو صلحها فلن أستمع إليها، سأستمع إليها مرة واحدة، ثم أضعها في غرفة الضيوف، ذكرى من

جدي. وإذا سألني أحد أصدقائي، فسوف أقول له: نعم، تعمل، وسأجربها، ولكن، بالتأكيد لن نصغي إليها سوى دقائق.
لم يعد لدي ثمة رغبة في الاستماع إلى الراديو، التلفزيون حل محل الراديو.

*

أرجع إليه بعد أسبوع.
فيناولني لمبة صغيرة، ويقول لي:

- هذه اللمبة محترقة، ابحث عن بديل منها، ولعل الراديو يعمل بعد ذلك.
- هل عندك مثلها؟
- لو عندي كنت وضعتها، وأعطيتك الراديو.
- وأين سأجد مثلها؟
- ابحث.
- هل أجدها في منطقة "العبَّارة" عند باعة الأدوات الكهربائية؟
- لا أتوقع، ابحث عند باعة الأشياء القديمة.

أتأمل نظارته المكسورة، أحس بالاستياء، أود لو أحطمها، أقول له:

- زوِّدني برقم هاتفك، لأتصل بك.

يتناول بقية السيجارة من المنفضة البلاستيكية المحترقة الأطراف، يضعها بين شفتيه، أحس بالفلتر يحترق، يمج الدخان، ينفثه، ثم يرمي بها في المنفضة، يعلّق:

- لا أحوي عندي في المحل أي هاتف، لو كان عندي هاتف في المحل لما استطعت العمل، كل دقيقة ستأتيني عشرات الهواتف، كل زبون يسأل عن حاجته، وفي أذني وش، لا أطيق الهاتف.

وأسمع صوت سيدة تدخل إلى المحل، وهي تقول:

- صباح الخير، معلم آكوب، هل عندك شريط بطول مترين، وفيه تحويلة، أريد توصيل شريط المسجلة، لأضعها بجوار سريري.

وألتفت، وإذا هي سهام، سهام نفسها، يا إلهي؟! أي مصادفة هذه؟! تقدَّم بها العمر، أصبحت مثلي في الخمسين، ولكن، ما تزال تحتفظ بجمالها، كأنها في الأربعين.

تبادرني:

- أهلا أستاذ سمير، ما هذه المصادفة الجميلة.
- أهلا، بالسيدة سهام، هي مصادفة جميلة حقًا.
- سعيدة أنا بلقائك.
- وأنا أكثر، هل تعرفين، من ثلاثين سنة ما التقينا؟

وتلتفت إلى المعلم آكوب:

- الأستاذ سمير، زميلي يوم كنا في الجامعة، يا إلهي، كيف هذا؟ هل هذا اللقاء مصادفة أو موعد؟ أرجوك، ساعده، ولا تقصر في خدمته، أوصيك به، كان أعز زميل، كان يحاول مغازلتي، وكنت أصد عنه.
- شكرا لهذا الاعتراف الجميل.
- أرجو الآن قبول اعتذاري، أعترف، كنت أجمل فتاة في دفعتنا، وكنت مغرورة.
- من حقك.

يتناول المعلم آكوب من المنفضة المحترقة الأطراف سيجارته المشتعلة، يضعها بين شفتيه، ينفث الدخان، ثم يعيدها إلى المنفضة المحترقة الأطراف، ثم يعلق:

- وما زالت مغرورة، أدعوها إلى فنجان قهوة، هنا في المحل، فلا تقبل.

سهام تضحك، ساخرة، ثم تعلق:

- أرجوك، كن الحكم بيننا، من المغرور، أنا أم هو؟ أنا أدعوه إلى فنجان قهوة، في شرفتي، فلا يقبل، بيتي هنا، فوق محله، والشرفة عندي ربيع دائم، مملوءة بأصص الزهر.

المعلم آكوب يلتفت إليها، يرخي النظارة عن عينيه، يحدق فيها، ثم يعلق بلهجة ساخرة:

- مدام سهام، العمل هو العمل، لا أستطيع ترك المحل، ولا العمل، إذا أردت، تفضلي أنت، اصنعي القهوة بنفسك، نشرب القهوة هنا، ويأتي زبون، وأظل أعمل.

تعلّق، وهي تشير نحوي، وتضحك:

- حاضر، سأعد القهوة بنفسي، كرمى صديقي الأستاذ سمير.

وتمضي على الفور إلى عمق المحل، تحمل دلة قهوة، وتتجه إلى حنفية تحتها حوض، تغسلها، تملؤها بالماء، وتميل على الأرض، يبدو أن هناك سخانة كهربائية، تضعها فوقها، وترجع إلى الحنفية، فوقها رف صغير، فيه علبة قهوة وبضعة فناجين، مختلفة الأشكال، وسرعان ما ترجع وبيدها فنجان تقدمه إلي، ثم تحمل فنجانين، أحدهما من غير عروة، تقدمه للمعلم آكوب.

تتصرف بعفوية، هي من غير شك تعرف المحل من زمان، وتعرف كل موضع فيه، ويبدو أنها اعتادت على صنع القهوة بنفسها كل يوم.

بل يبدو المعلم آكوب صديقها الودود، وهي تمازحه، في حين كانت متكبِّرة لا تكاد تبتسم في وجه أحد، من حظ هذا العجوز السبعيني أن يحظى بجارة مثل سهام، ويكون بينهما مثل هذا الوداد والمزاح.

المعلم آكوب يلقي نظرة على المنفضة المحترقة الأطراف، يهم بالتقاط بقية السيجارة، لكنه يجد الفلتر قد احترق، ولم يبق منه

شـــيء، حتى موضـــعه في المنفضـــة قد ظهر أثر الاحتراق فيه. يســـتل ســـيجارة من علبة في جيب قميصـــه، من غير أن يخرج العلبة، يشـــعلها، ويأخذ في نفث الدخان، وراديو كبير أمامه، يكب عليه، ويعمل في تصليحه.

سهام تتكلم:

- معلم آكوب، أرجوك اهتم بصـديقي الأسـتاذ سـمير، ماذا أحضر لك للتصليح؟

يضـــع الســـيجارة في المنفضـــة، يرفع فنجان القهوة إلى فمه، يبل لســـــانـه بقطرة من القهوة، وأنـا أتوقع أن الفنجـان لن يفرغ حتى المساء. يشير إلى الراديو الذي وضعته على الرف، ويتكلم:

- راديو فيليبس.

وينظر في وجهي، ثم يقول:

- من أجل زميلتك ســهام، أنصـــح لك، أنا ســآخذ منك هذا الراديو، وخذ أي راديو آخر من الراديوهات الموجودة على الرفوف، خذه هدية، ولا تكلف نفسك مشقة التصليح.

أنظر إلى سهام، مستفسرًا، فتقول:

- اقتراح جيد.

أرشف بقية فنجاني، وأقول:

- لهذا الراديو في نفســـي ذكريات، وأنا ورثته عن جدي، الأفضل تصليحه، أود الاحتفاظ به.

*

أرجع إليه بعد أسبوع، فيناولني قطعة صغيرة، لا أعرف اسمها، وهو يقول لي:

- ابحث في السوق عن مثل هذه القطعة، هي محوِّل خاص بفيليبس، ستجد صعوبة في العثور على مثل هذه القطعة.
- وأين يمكن أن أجدها؟
- لن تجدها في مكان محدد، ابحث عنها في كل مكان.

أتلكأ قليلا، أتأمل الرفوف الغاصة بالراديوهات والمسجلات والهواتف، أتوقع دخول سهام.

ألتفت إليه، أسأله:

- كيف جارتك السيدة سهام؟
- من أربعة أيام ما زارتني.
- هل هي مريضة؟
- لا، هذه هي عادتها، تغيب مرة عشرة أيام، ثم تزورني كل يوم، لكن لا بد من أن تمد رأسها من باب المحل على الأقل، لتحييني وهي راجعة إلى البيت.

أهم بالخروج فيقول لي:

- ضع القطعة في جيبك، واحفظ شكلها، قرب سوق الهال، هناك بسطات على الأرض، لِأشياء مهملة، ملتقطة من القمامة، قد تجدها هناك، ابحث بين القطع المعروضة على الأرض، من الممكن أن تجدها.

أقرر أن أترك الراديو عنـده، لتبقى نـائمـة على الرف بين عشـرات الأجهزة من مثلها، وأخرج. ولكن سـرعان ما أشـعر برغبة في التحدي، وأذهب من فوري إلى سوق الهال.

*

بسطات كثيرة متناثرة على الأرصفة، على الأرض، مسنَّنات، وأشرطة تسجيل، وحنفيات، وقطع متناثرة مفككة من ساعات بحجوم وأشـــكال مختلفة، قطع آلات فرم اللحمة، مفكَّات، مسـامير صـدئة، مفاتيح، أقفال مكسـورة، أقلام حبر عتيقة، متحف من اللقى والآثار، مَنْ يفكر في شـراء شـيء من مثل هذه القطع؟

أبحث بينها.

- هل أساعدك؟ قل لي عن أي شيء تبحث.

شـيخ عجوز، تجاوز السـبعين، وجه كسـته التجاعيد، وجنتان غائرتان، كأنه صائم العمر كله.

وأمد يدي إليه بالقطعة، وفورًا يعلق:

- هذه قطعة من راديو فيليبس، قبل ساعة بعت قطعة مثلها، جاء صاحب النصيب وأخذها، هذه تلتقط الموجات، قطعة حسَّاسة، مرَّ بي بعد يومين، يمكن العثور على مثلها.

المعلم آكوب، وهو المصـــلح الخبير، يقول عنها محوِّل، والبائع الذي يجمع الأشياء من حاويات القمامة يقول عنها قطعة حساسة، هي التي تلتقط الصوت، ومن المؤكد أن لديه القطعة، بل أظن أن

لديه قطعًا كثيرة منها، لكنه لا يريد بيعها لي فورًا، يريد أن يشعرني بأهميتها وندرتها، ويتعبني في البحث عنها، كي آتي إليه بعد يومين، وأدفع له الثمن الذي يريد.

*

كنت أحب كل شيء حديث، وأتعامل معه فورًا، وما أزال، ولكن لماذا تعلقت فجأة بهذا الراديو، لا أعرف. لكن هل سيقوم المعلم آكوب حقيقة بتصليحه؟ هل سأحمله إلى البيت، وأستمع إليه، أم هل سأتخلى عنه، وأتركه له على الرف بين العشرات من أمثاله.

محله ليس محل تصليح راديوهات ومسجلات وهواتف، محله في الحقيقة مقبرة راديوهات ومسجلات وهواتف، لا أظن الأجهزة كلها للتصليح، هي في ظني أجهزة جاء بها أصحابها للتصليح ثم تركوها ولم يرجعوا، ولاسيما عندما يطلب منهم شراء مثل تلك القطع.

لا أعرف كيف يضع السيجارة فوق سطح الراديو وهو يصلحها، وسطحها بلاستيك، أما يخشى من احتراق سطحها؟ وتلك المنفضة، كيف تحترق حافاتها ولا تشتعل؟ حتى الملتقى بين إصبعيه: السبابة والوسطى محترق، حتى منتصف شفته السفلى متفحم ومحترق، أتمنى أن ينسى ذات يوم سيجارته، وتشتعل المنفضة، وتشتعل الطاولة، وتحترق تلك المقبرة.

لا أعرف لماذا تراودني تلك الفكرة.

ليحفظه الله، وليحفظ جارته السيدة سهام.

آه، السيدة سهام، ليته يطلب مني قطعا أخرى، وليت التصليح يطول، أتمنى أن تدعوني السيدة سهام إلى شقتها ذات يوم، أشتهي رؤية شقتها من الداخل.

سهام، ما يزال لها موضع في قلبي.

والراديو ما يزال له موضع.

*

أرجع بعد أسبوع، في الموعد المحدد إلى المعلم آكوب، وأنا أحمل إليه القطعة. يسألني:

- بكم باعك إياها؟
- بخمسمئة ليرة.

يضحك، يعلق:

- راعاك كثيرًا، جاءني زبون أخبرني، باعه مثلها بألف ليرة، احمد ربك.

أحس في لهجته الكذب.

هو متواطئ معه من غير شك، هو الذي يرسل إليه الزبائن، ويعرف بكم باعها، ليأخذ حصته من الثمن. مع ذلك، أحس برغبة قوية، في سماع الراديو مهما كلف الثمن. ما هذا العشق؟

وتدخل سهام.

أحس أنها أكثر شبابا وأكثر نضارة وحيوية، في المرة الأولى رأيت التجاعيد في وجهها، والانتفاخ في عينيها، اليوم أراها

متألقة، سـن الخمسـين سـن النضـج، والاكتمال، أعرف أنها تزوجت وأنجبت بنتا واحدة، ثم مات عنها زوجها، ولم تتزوج من بعده، شـــغلت بتربية ابنتها. لا شـــك أن ابنتها الآن في الخامسة والعشرين.

تسرعت في الزواج من زميلنا وسيم. كنا كلنا نتبارى في كسب ودها، ونتنافس، فوجئنا عندما تزوجت من وســـيم، ونحن في السنة الأخيرة. كان الأحرى بها أن تختار غيره.

*

تســـرع فورًا إلى الداخل، تضـــع دلة القهوة على الســـخانة الكهربائية، تعدّ القهوة. تحدِّثنا عن الكناري، وعن الزهور في الشرفة.

- اليوم رأيت عصـــفورة تحط على القفص، جذبها الكناري، حاولت الإمساك بها، لكنها طارت.

وتصمت ثم تعلق:

- ما حزنت، لأني لا أريد له الأنثى، سـتشـغله عن التغريد، بمجرد وجود الأنثى سيسكت.

ويعلق المعلم آكوب:

- أنت اشتري له أنثى، ولك مني مسجلة، هدية، فيها تسجيل كناري، صوته أجمل من صوت كناريك.

تضحك، تعلق:

- لا أحب الكناري الميكانيكي، الآلي، أريد الكناري الحي.

وألتفت إلى المعلم آكوب، أسأله:

- وأنا، متى سأسمع الكناري في الراديو يغرد؟

يشير إلى الراديو على الرف، ويقول:

- مكبر الصوت عندك صوته خشن، بسبب اهتراء القماش في المكبر، العفونة أكلته.

ويستل ورقة من الدرج، ويكتب عليها بضع كلمات، وهو يقول:

- مكبرات الصوت لراديو فيليبس متوفرة، يمكن شراؤها من منطقة العبارة، من بائعي الأدوات الكهربائية، قل لأي بائع أريد مكبر فيليبس نمرة، ١٢.

- كم تقدر ثمنه؟

- اطمئن، بين المئتين والثلاثمئة، لا أكثر، ساوم البائع، بحسب شطارتك.

أعلق فورا:

- سأشتريه الآن، وأرجع إليك.

ينظر إليَّ من وراء نظارته المكسورة، ويعلق:

- لا، تعال في مثل هذا اليوم.

ويلتفت إلى السيدة سهام، يسألها:

- اليوم هو الإثنين، هل هذا صحيح؟

ترد:

- لا ضـــرورة للســـؤال، هل نســـيت؟ أمس الأحد ذهبت إلى الكنيســـة، وصـــليت، ثم خالفت تعاليم الرب، ثم جئت إلى المحل وفتحته.

يضـــع الســـيجارة على طرف من ســـطح الراديو الذي أمامه، يرشف من فنجانه، ثم يقول لها:

- أنا أتبع تعاليم الرب، ربي وربكم، وهو واحد، وهو القائل: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض".

السيدة سهام تعلق:

- المعلم آكوب ينام في المحل، ولا يذهب إلى البيت لينام عند زوجته إلا ليلة الأحد.

المعلم آكوب يتكلم:

- أنا في الحقيقة أنام ليلة الأحد في البيت لقرب الكنيسة من البيت، وأصلي فيها صباح الأحد، وفورا أرجع إلى المحل، حياتي هنا، ولو كانت الكنيســـة قريبة من المحل، ما كنت ذهبت إلى البيت على الإطلاق.

ويشير بيده، وبقية السيجارة بين السبابة والوسطى إشارة لا مبالاة.

ثم يلتفت إلي ليقول:

- تعال الإثنين القادم، اعذرني، والله عندي شغل كثير.

سهام تسألني:

– أستاذ سمير، هل ما زلت على رأس عملك؟

– نعم، في المدرســــة نفســــها التي عينت فيها قبل خمس وعشرين سنة، في مدرسة الحكمة، بجوار سينما أوغاريت.

– أنا مللت من التدريس، بلغت الخمســين، قدَّمت اســتقالتي، وتم قبولها، أنتظر بيع هذا البيت، فوق محل المعلم آكوب، ســأنتقل للعيش في العاصــمة مع ابنتي هدى، يكفيني راتبي التقاعدي.

ترشف قهوتها، ثم تضيف:

– ويسرني أن تزورني، في شقتي، قبل انتقالي إلى العاصمة، أنت والمعلم آكوب، قهوتي أطيب.

المعلم آكوب يغمس بقية الســيجارة في الرماد الذي ملأ المنفضــة المحترقة الأطراف، يعلق في شــبه انزعاج مفتعل، وهو يضحك:

– البن هو البن نفســه، والقهوة هي القهوة نفســها، أنت تصنعينها بنفسك، هي قهوتك، فكيف قلت قهوتي أطيب؟

تضحك، تغمز بعينها، وترد:

– طبعا، قهوتي، في بيتي، أطيب من قهوتي في محلك، للمكان روح.

المعلم آكوب يتحرك نحو الباب، وهو يقول:

– تفضلي، تفضل أستاذ سمير، سأغلق المحل، سأصعد فورا إلى شقتك، لأرى، هل حقا قهوتك في شقتك أطيب من قهوتك في محلي، تفضل أستاذ سمير.

أرشف بقية فنجاني، وأرد:
– سنشربها في شقة السيدة سهام عند انتهائك من تصليح الراديو.
*
أخرج من المحل وأنا بين الاستياء والأمل.
مستاء من التأخير، ومتعلق بالأمل في سماع الراديو.
مرة أخرى لا أعرف كيف انفجر في داخلي هذا الاهتمام بالقديم.
ألتفت إلى الشرفة، لدى خروجي من المحل. شرفة خشبية قديمة ضيقة، قائمة على جسرين حديديين يمتدان نحو المتر خارج البناء، ثمة أصص قليلة، لا أكاد أرى فيها أي شيء أخضر، القفص معلق في فضاء الشرفة، قضبانه المعدنية صدئة، والكناري ساكن لا يتحرك.
*
أتسلق إلى الشرفة، أدخل من النافذة، سهام في سريرها، القفص إلى جانب السرير، الكناري يخرج من بين القضبان، يحط على فمها، تنهض، لا، ليست هي، هذه ابنتها، سهام تخرج من وراء الستارة، تشدني من قميصي، تمزقه، لا، لن تتزوج ابنتي، راديوك القديم، لن يعمل، ابنتها تصيح، تهرب من الشرفة، أحس صوت سقوط، هل سقطت ابنتها من الشرفة؟

أنهض مذعورا، لكنني سرعان ما أتفاءل.
الراديو سيُصلَّح حتمًا، وابنتها في الحلم هي الراديو، وسهام لا تريده أن يعمل.
أحب الأحلام، وأحب تفسيرها، أفسرها بنفسي لنفسي.
*
الإثنين أنزل إلى المدينة، حاملا مكبر الصوت، أرجو أن يكون القطعة الأخيرة التي يطلبها.
أحس بنشوة، سأحمل الراديو وأرجع به إلى البيت، وهو يعمل.
تقفز إلى خاطري فكرة، أدخل إلى محل الحلويات، أشتري قالب كاتو، سنحتفل بتصليح الراديو، سنصعد إلى شقة سهام، أنا والمعلم آكوب، سنشرب القهوة في شقتها، كما وعدتها، لا، المعلم آكوب لن يصعد، هو لا يريد مغادرة المحل، أو قد يصعد، ويقعد قليلا، ثم سرعان ما سينزل إلى المحل، لا يستطيع مغادرته، سأبقى أنا وحدي مع سهام.
لا أنسى في اللقاء الأخير في محل المعلم آكوب قالت لي: أعرفك لم تتزوج، هل تزوجت؟ قلت لها: لا، قالت: أنت لم تتزوج، وأنا تزوجت، لكن النتيجة واحدة، أنا مثلك، منذ خمسة عشر عاما بلا زوج، ويعلق المعلم آكوب: وأنا مثلكم، متزوج، وغير متزوج، حكيت لكم، لا أنام عند زوجتي إلا ليلة الأحد.
من غير المعقول أن أعرض عليها الآن فكرة الزواج، لا، هو مجرد هاجس، لكن، لعل شقتها تضمنا ساعة من الزمن فأرى

الزهور في شـرفتها، أرى شـقتها من الداخل، وأسـمع الكناري وهو يغرد.

*

أقترب من المحل.

هل هو نفسـه؟ لا واجهة، ولا زجاج، ولا باب، المحل محترق، الرفوف محترقة، المسجلات والراديوهات على الرفوف محترقة، أحاول أن أتبين راديوي، هو أيضا محترق.

أدخل إلى المحل المجاور، أسأل عن جاره المعلم آكوب.

- المحل اشتعلت فيه النار في الليل، من عادة المعلم آكوب النوم في المحل، إلا ليلة الأحد ينام في البيت ليصـلي في الكنسية، نحن نعرف، هذه هي عادته، نحن جيران العمر، وحين وصلت سيارة الإطفاء كان كل شيء في المحل قد احترق، كل الأجهزة مواد بلاستيكية وهي سريعة الاشتعال، يبدو أنه نسي السخانة الكهربائية شغالة، انصهر الشريط، وحدث ماس كهربائي.

أعلق:

- مسـكين، ضـاع تعب العمر، وكيف سـيوفر لقمة العيش، وكيف سيدفع للناس ثمن الأجهزة التي في المحل؟

صاحب المحل يضحك، يعلق:

- وهل تظن أنه كان يعيش من تصليح الراديوهات؟ التصليح بالنسـبة إليه هواية، يصـلح ولا يأخذ أجرة التصـليح، هو

يتســـلى لا أكثر، وأكثر الأجهزة التي في المحل هي له، اشتراها من أصحابها، ليست للتصليح، الرجل كريم، دفع ثمنها، هو يحب جمعها.

أقاطعه فأقول:

- صـــدقت، حتى إنه عرض عليَّ اختيار أي راديو، هدية، بدلا من تحملي مشقة تصليح جهازي.

صاحب المحل يؤكد:

- صـــدِّقْهُ، الرجل طيب، ومَرِح، أولاده في كندا والبرازيل، وأتوقع أن يبيع محله ويهاجر، محله الآن يســـاوي ثمنه الملايين.

*

خارج المحل أرفع رأسي إلى الشرفة؛ يا إلهي الشرفة محترقة، ولا كناري ولا أصص زرع.

أصعد الدرج الضيق المعتم، أقرع باب الشقة، ما من مجيب.

أرجع إلى جاره، أسأله:

_ والجارة التي فوق، السيدة سهام؟

– سافرت إلى ابنتها في العاصمة، وضعت مفتاح الشقة عند دلال العقارات، هي معروضة للبيع، هل تفكر في شرائها؟

أنتبه إلى قفص معلق في داخل المحل قرب الباب. هو القفص نفسه الذي كان معلقا في شرفة السيدة سهام، كناري أصفر، قفص قضبانه معدنية صدئة.

- هذا القفص كان في شرفة السيدة سهام أعرفه.

أعلق مدهوشًا، وأنا أشير إلى القفص، فيسأل الرجل صاحب المحل:

- أنت الأستاذ سمير.
- نعم، وكيف عرفت؟
- السيدة سهام أخبرتني وهي تغادر، قالت لي: سيسأل عني شخص اسمه الأستاذ سمير، لن يسأل عني أحد سواه، ووصفتك لي: في نحو الخامسة والخمسين من العمر، طويل، نحيل، وطلبت مني أن أعطيك القفص والكناري الذي فيه، هدية، للذكرى، هي تحترمك كثيرًا، حدثتني عنك، قالت كنت زميلها في الجامعة، هي تودك.

*

أقرع الباب على جاري في العمارة، أقول له:

- اشتهيت هذا الكاتو لأولادك.

وأدخل إلى شقتي بالقفص وفيه الكناري، أمضي إلى الشرفة، أعلقه فيها، أقعد أتأمله، وحدي، أنتظر سماع تغريده.

العجوز... وقطعة الحجر

في المســـاء، وأنا راجع من عملي إلى البيت، لم أجده في مكانه على الرصيف.

تنبّهتُ إلى أنني لم أره أيضـــاً في الصـــباح. قطعة الحجر وحدها لابثة في المكان على الرصـيف بجوار السـور. رحت على الرصـيف مرتين وجئت، الشـرطي الواقف في باب المصـرف أخذ ينظر إليّ في ارتياب، اقتربت منه، حييته، سألته:

ـــــ هنا، على الرصـيف، فوق هذا الحجر، يقعد دائماً رجل عجوز؟

فهم من لهجتي أنني أســـأله، فأجاب على الفور بجفاء وهو ما يزال يرتاب بي:

. لا أعرف، هذا أول يوم لي.

قلت مؤكداً:

. هذا الحجر الذي تراه إلى جانب السور يقعد عليه.

رد بجفاء ويده على بندقيته، وقد أثار وجهه في نفســـي الخوف:

. قلت لك لا أعرف.

*

في كل يوم أراه، أنا ذاهب إلى مكتبي في الصـــباح، وأنا راجع منه، في المساء، في صيف أو في شتاء، على هذا الحجر يقعد، يسند ظهره إلى سور المصرف، وأمامه ميزان للأشخاص، لا يتكلم، ولا يســأل، ولا يمد يده، في نحو الســبعين، أو أقل، لحيته بيضاء خشنة، شعره أبيض أشعث مبعثر، لم يسقط منه شعرة، حاجباه كثيفان جداً، اليوم سأعطيه، غداً سأعطيه، في كل مرة أعد نفســي، ولا أفعل، ســألت عنه زميلي في المكتب، قال لي وهو يرشف القهوة:"هذا يحصّل في اليوم أكثر من راتبك، يأخذ عشر ليرات مقابل الصـــعود فوق الميزان، وميزانه غير دقيق، في اليوم الواحد يقف فوق الميزان أكثر من عشــرين، أي دخله في اليوم لا يقل عن مئتي ليرة، أي ستة آلاف ليرة في الشهر، أنت راتبك أقل من ستة آلاف، وإذا صعد فوق الميزان في اليوم أكثر من خمسين، صــار دخله في الشــهر مثل راتب الســيد المدير، ولا تنس أيام الأعياد، في كل يوم من أيام العيد يحصـــل على أكثر من ألف وخمسمئة ليرة، حتى في يوم الجمعة، كثير من الأولاد يمرون به، ليعرفوا وزنهم، ولا تنس، كثير من الناس يرمون له عشـــر ليرات، على ظن منهم أنه فقير".

فكرت كثيراً، في كل مرة أقول لنفسي: "عشر ليرات أشتري بها لولدي علبة سكاكر، أو هي أجرة الحافلة، هو لا يستحقها".

*

اتصـــل بي المحاســـب، ودعاني إلى مكتبه، فوجئت به يناولني عشرة آلاف وستمئة وثلاثين ليرة، دهشت، سألته، أجاب: "هي تعويضات مستحقة عن أعمال إضافية قبل سنتين"، شكرته، ناولته الثلاثين ليرة، هبة مني، قال لي:" أشـــكرك، أنا لا أريد أي قرش، أنت تعرفني، راتبي يكفيني، إذا شـــئت أعطها لهذا الرجل العجوز القاعد على الرصـــيف أمام المصـــرف"، وقبل أن أنطق بكلمة تابع قوله:"الرجل عنده ثلاثة أولاد، هكذا ســـمعت، أنا غير متأكد، وهم لا يسألون عنه، يعيش وحده، ويخجل من التسول".

*

قررت أن أعطيه الثلاثين ليرة، ولكن لم أجده على الرصيف.

تلفّت حولي، الشـرطي المتجهم يرقبني، هو لا يعرف شـيئاً، حقيقة هو جديد، أنا لم ألحظه من قبل، تنبّهت إلى عامل قمامة، وبيده مقشة، وهو يكنس أوراق الأشجار المتساقطة على الرصيف، "هو يعرفه من غير شك، سأسأله عنه"، توجهت إليه، سألته عنه.

أجابني:

– الرجل غني، ما هو بفقير ولا بحاجة، تزوج ثلاث مرات، ولم يرزق بولد، ثم نذر إذا رزق بولد أن يتســـول، ثم رزق بولد، وبدلاً من التسول، يقعد هنا، كما تراه كل يوم، ويضـع أمامه ميزان الأشخاص، وإذا أعطيته أي شيء فهو لا يرده، حتى يفي بالنذر.

وأخذ يدفع الأوراق والغبار والقمامة أمامه، وهو يعلق:

. ألا تعرف؟ الجنون فنون.

*

في صـــباح اليوم التالي رأيت في باب المصـــرف شـــرطياً، وجهه مألوف بالنسبة إليّ، لعلي رأيته من قبل، سألته عنه، الحجر ما يزال على الرصيف، بجوار السور، أجابني:

. المدير صرفه.

لا حظ دهشتي فأضاف:

ـ ما هو متسول ولا صاحب ميزان يتعيّش منه، هو حارس، يراقب الناس أمام المصـــــرف، وفي جيبه هاتف خاص، في حال حصول أي حركة غريبة يتصل فوراً.

مضيت غير مصدق.

في المســاء، وأنا راجع إلى البيت من عملي، رأيت شـــرطياً غير شـــرطي الصـــباح يقف بباب المصـــرف، ســألته عنه، فأجاب بسرعة:

ـــ مات، استراح، وأنا ارتحت، كنت أتضايق من قعوده هنا مثل حجر لا يتحرك.

*

مرت عدة أيام، مر أسبوع، مر شهر أو أكثر، والحجر الذي يقعد عليه ما يزال على الرصـــيف في موضـــعه. فقط الرجل هو الغائب. مات الرجل إذن، رحمه الله.

*

ذات يوم، وأنا أقبض راتبي، قال لي المحاسب:

. هل تتذكر الرجل الفقير على الرصيف أمام المصرف؟ وقد نصحت لك أن تعطيه ثلاثين ليرة؟

. نعم.

ـــــ سمعت أنه جاسوس يعمل لدولة أجنبية، وتم اعتقاله، وسوف يشنق.

تدخل أحد الزملاء وكان يعد رزمة نقود، هي راتبه الذي قبضه، فقال:

ــ والله أخطأت في العد، لما سمعت الكلام على هذا الرجل العبقري.

وصمت، أعاد عدّ النقود، ثم أضاف:

ـــ المبلغ بالتمام صحيح، ما في أي مشكلة، أما الرجل فأنا أعرفه، هذا الرجل ابن أســـرة غنية، يعرف خمس لغات، درس الفلسفة، أرسله أبوه إلى ألمانيا، نال ثلاث شهادات دكتوراه، في الطب والفلســـفة والموســـيقا، هو عازف غيتار، وهو في ألمانيا أصـــيب بحادث ســـيارة، فقد ذاكرته، أنفق عليه أبوه كل ما يملك، ولكن من غير فائدة.

قلت:

. الرجل مات، وأنا منذ شهر أو أكثر ما رأيته، الله يرحمه.

نظر إليّ الزميل، وأضاف:

ـــ الرجل لم يمت، اليوم أنا رأيته أمام المصرف، وهو قاعد على الحجر.

*

غادرت مكتب المحاسب غيرَ مصدِّق، هممت بالخروج من المديرية للتأكد من وجوده على الرصـــيف، ولكنني أجَّلت ذلك إلى المساء، إلى حين انصرافي من العمل.

في المساء، لم أجد أحداً. الحجر في موضعه.

*

شـــرطي متقدم في العمر يقف أمام باب المصـــرف، وجهه مألوف، لاشـــك في أني رأيته من قبل، ولا شـــك في أنه يعرفني، سألته:

– هل رأيت الرجل العجوز الذي يقعد هنا دائماً.

نظر إلي مدهوشاً، تبسم ثم قال:

– منذ عشر سنوات وأنا أقف هنا، ما رأيت أي رجل.

قلت له:

– وهذا الحجر؟

تبسم ثانية، وقال:

– هذا الحجر قديم، هو قطعة زائدة من حجارة ســـور المصرف، أنا منذ عملي هنا قبل عشر سنوات رأيت هذا الحجر، ولكن ما رأيت ذلك الرجل الذي تتحدث عنه.

العودة إلى السوق

جهاز تخطيط القلب إلى جواري، والطبيب يقرأ شـــريط التخطيط، الممرضة تغرز إبرة في ساعدي، عيناي شاخصتان إلى التلفزيون المعلَّق عاليا في الجدار قبالتي، أتابع الشـــيخ وهو يتلو آيات من القرآن الكريم، أستغفر الله، يا رب، لن أعود إلى ما كنت عليه من قبل، أســألك الســلامة كي أتعبدك ليل نهار، أحس أني فراشة أحلق في الفضاء، لا وزن لي، ولا أكاد أحس بشيء.

الممرضـــــة إلى جواري، فقط أخذت نظرة واحدة من عينيها ومن شـفتيها ومن صـدرها، لكن لم أُعِدِ النظر إليها، نظرة واحدة، النظرة الأولى لي، لكن ســـامحني، يا رب، كانت نظرة طويلة، أتوب إليك يا رب، ماذا أفعل، عيناها فتاكتان، فمها ينادي، صـدرها يصـرخ، وبعد خروجي من العملية، أعدك يا رب، لن آخذ رشـــوة من أحد، ولن أقبل هدية لا قبل أي معاملة ولا بعدها، ســأنجز أي معاملة فورًا، لن أســتغل أي مراجع بعد اليوم، وســأرحب به، وأضــحك في وجهه، ســأصــبح مثل ذلك الموظف المســكين وحيد، لا يقبل رشــوة، ولا هدية، اقترب من التقاعد وما جنى من الوظيفـة غير المرض والفقر، يكفيني مـا جنيتـه من الوظيفة في عشر سنوات، سوف أصبح قانعًا بالراتب، وسوف أقلع عن التدخين، حتى تلك الآلاف القليلة من الدولارات التي أتاجر بها، سوف أتوقف عن التعامل بها، سوف أقاطع صديقي رشيد،

شـــريكي في تجـارة الـدولار، هو الســـبب، هو علمني التجـارة الممنوعـة، لن أغامر بعد اليوم، يكفيني ما جنيت، عندي شـــقة وسيارة وأربعة أولاد وما بلغت الأربعين، وحوالي مئة وخمسين ألف دولار، هي لحركة البيع والشـــراء، يكفيني، لا أريد أكثر، لن أجمع مال قارون.

وتدفع الممرضـة النقالة، وأنا ممدَّد عليها، تجري بها في الممر، زوجتي تسـير إلى جواري، أمسـك يدها، ألثمها، أنظر إلى عينيها، يا إلهي كم هي حنون، كم هي جميلة، ســـامحيني، أنت والله الكل في الكل، أنت وحدك الحقيقة والباقيات خيال، أعدك، بعد خروجي بالسلامة، لن أتعرف على أحد من النساء، توبة، أنت وحدك، عرفت أنك أنت وحدك التي تقف إلى جانبي، أين ســـلمى ومنى وسـوسـن وأنطوانيت وعفراء وهبة وليليان وجورجيت، لا امرأة ســـواك بعد اليوم، عيونك هي العيون، أنت الكل، وحدك الكل في الكل، أنت وحدك الحقيقة، أرجوك، لا تخبري أحدا من إخوتي، ولا أصـدقائي، لا أريد أن يشـمتوا بي، المرض ليس عيبًا ولا شـماتة، ولكن هكذا هو في مجتمعنا، ماذا أفعل؟

عند بـاب المصـــــعد، أرى دمعتين في عينيهـا، هـاتفي الجوال تركته في البيت، أقفلته، وغيرت رمزه الســري، أخشـــى أن تتصـل بي سوسن، لم أخبرها، وإن كانت تعرف أن عندي فتقًا في الحالب الأيمن وأني أتردد في إجراء العملية، كثيرًا ما شـــجعتني على إجرائها، قالت لي أنا آخذك إلى المشـفى، تجريها صـباحا،

وتخرج إلى بيتي بعد ربع ســاعة، وتمضـــي اليوم كله عندي، ولا تخبر أحدًا، هي التي أوحت لي بفكرة ألا أخبر أحدًا، في المصـعد أنا وحدي، والممرضـة معي، نحن وحدنا، إحسـاس غريب ينتابني، عبق جســـمها يغمرني، وأنا أكاد أغيب عن الوجود، ثلاث مرايا حولي، أراهـا من كـل الجهـات، من وراء، ومن الجـانبين، وهي أمامي، ليتني أستطيع مد يدي إلى أزرار المصعد لإيقافه.

ويهبط بي المصعد.

*

فتحت عيني، زوجتي بجواري، صـــوتها راعش، والدمعة تخنقها، تمسك يدي، تقبل جبيني وهي تقول:

– الحمد لله على السلامة.

آخذ يدها، ألثمها، أضعها تحت خدي، أنام عليها.

أي نوم هنيء عشته، صـحوت فورًا، أريد النهوض، قوي أنا، سـعيد، نشـيط، عرفت، لقد خرجت من غرفة العمليات، أحس كأني حصـــان، أريد الخروج والركض، صـــديقي حامد بعد خروجه من غرفة العمليات أمضـى بضـع ساعات وهو في حالة من التعب والإرهاق وشـــبه الغيبوبة، لا يكاد يقدر على فتح عينيه، ما أجمل الحياة، أحس بالعالم رحبًا واسعًا، وأحس بنور وإشراق، حتى عندما أصـــحو من النوم لا أنهض إلا بعد أن أمضـــي بعض الوقت وأنا بين نوم ويقظـة، لكنني الآن صـــــاح، يقظ، أود النهوض، أهم بالنهوض.

يدخل صديقي رشيد، يقول لي:

– الحمد لله على السلامة.

لم أخبره، لم أخبر أحـدًا، مـا الـذي جـاء بـه، زوجتي أخبرته، هل بقي معها هنا في الغرفة، في حين كنت أنا في غرفة العمليات، هو ابن عم أمها، هي التي عرفتني عليه، وكان تقدم إلى خطبتها من قبل وهي في العشرين.

– متى جئت، ومن أخبرك؟

– الان وصلت، مع صحوك دخلت، سامحني تأخرت عليك، لماذا لم تخبرني؟

– زوجتي أخبرتك؟

– نعم، أخبرتني متأخرة، بعد دخولك إلى غرفة العمليات، تعرف أني أعز أصدقائك.

ألتفت إليها، وكأن شـــوكة تخزني في موضـــع الجرح، أقول:

– لماذا أخبرت رشيد؟ أوصيتك: لا تخبري أي أحد.

وتدخل الممرضـــة، تحمل كاس مغلي اليانسـون، رائحته أحبها، أحس فيه الحلاوة. تناولني الكأس، وهي تقول:

– الحمد لله على سلامتك، تفضل اشرب، هذا مهدئ، ويخفف من الإحساس بالألم.

أتناوله من يدها ببطء، وأنا أحاول لمس أناملها، وأرشف الأحمر المتألق في شـــفتيها المكتنزتين، وأكاد أدخل بين نهديها الممتلئين، وأتنسم شذى اليانسون ممزوجًا بعبق جسدها الفاغم.

– اشكرك، دخولك أنساني الألم، وأريد العودة إلى البيت.

– ســتخرج، عمليتك بســيطة، فتق أربي، جرحك عشــرة سنتيمتر، العملية ما أخذت غير ربع ساعة، كنت أنا إلى جوارك، جرحك ما نزف غير القليل العادي، ســـتخرج، بعد مرور الطبيب ليطمئن عليك.

– أشــكرك، صــدقيني أحس بنشــوة، ما أجمل التخدير، نمت النوم العميق، ما أحسست بشيء، وما رأيت أي حلم.

– الفضل للطبيب المخدر.

وتسرع في الخروج.

أتبعها أنظاري، وأنا أتأمل شــعرها الأســود المرســل على ظهرها، فوق صدريتها البيضاء، وردفاها يتماوجان في إيقاع.

ألتفت إلى رشيد:

– اذهب إلى السوق، اطمئن أنا بخير.

رشيد، يعلق:

– تريد الانفراد بزوجتك، اشتقت إليها.

– لا، خذها معك، أوصـــلها إلى البيت، أريد الانفراد بالممرضة.

زوجتي تعلق:

– بارك الله لك فيها، لعلمك، هي أرملة، وعندها خمسة أولاد، سألحق بها وأخبرها، طبعًا سيطير عقلها من الفرح، بعدما كانت إلى جوارك في العملية، ورأت كل شيء، وعرفت، ما شاء الله، قوتك والهمة عندك.

رشيد يعلق:

– لا تصدقيه، هذا أسلوبه دائمًا في المزاح، أنت أم أولاده، ولا يبدلك بنساء الأرض.

وتعلق:

– أعرف، لو كان حقيقة، كنت ذبحته وذبحتها معه.

ويدخل الطبيب والممرضة، يسألني الطبيب:

– كيف وضعك؟

– الحمد لله، أنا مثل الحصان، العملية أنعشتني، وأعادت إليَّ الحياة، الحقيقة العملية ممتعة، كنت أخاف منها، الفضل لك، صدقني أنا مستعد لإجراء عشر عمليات، لكن بيدك أنت.

الطبيب يعلق:

– طبعا، أنا جئت لأقول لك، عندك فتق آخر في الطرف الأيسر، وهذه الممرضة سوف تجهزك الآن فورًا للعملية الثانية.

الممرضة تضيف:

– العملية الثانية هدية من المشــفى، لن تكلفك أي ليرة، وسنكتفي هذه المرة بالتخدير الموضـعي، لترى الطبيب وهو يجري العملية، وتستمتع أكثر.

أحس برعشـــــة، وخفقان في القلب، أحاول النهوض، أتماسك، أقول له:

– بأمرك، أنا مستعد، لكن، بعد أسبوع، أرجو تأجيلها.

الطبيب يربت على كتفي، ويقول:

– اطمئن، كنت أمزح معك، ستخرج بعد قليل، حتى يمر بك طبيب القلب ويطمئن أكثر، لا تقلق، ســتخرج، الحمد لله على سلامتك.

يخرج الطبيب والممرضـــة، ألتفت إلى رشـــيد، أقول له هامسًا:

– كم سعر الدولار اليوم في السوق؟

– انخفض للحد الأدنى، من ستة أشهر ما حصل مثل هذا الانخفاض.

أضيف:

– أسرع إلى السوق، لملم من الدولارات ولو بسعر أعلى، اجمع كل ما يمكنك جمعه، أنا ســألحق بك، لن أرجع إلى البيت، اسبقني.

وألتفت إلى زوجتي أقول لها، وأنا أشير إلى التلفزيون:

– استمعنا إلى الشيخ بما فيه الكفاية، أغلقي التلفزيون، لا أعرف إذا كانت قناة أسعار الدولار مبرمجة هنا في المستشفى، لا تغلقيه، ابحثي لنا عن قناة الأغاني والفيديو كليب.

فيلَّا عمَّار

حوالي التاسعة ليلًا وصل من المطار إلى الفندق. وضع عامل الفندق الحقيبة في غرفته، منحه أعطية. ترك الحقيبة في مكانها، نزل إلى بهو الفندق، طلب فنجان قهوة، احتساه بسرعة، على غير عادته، ثم غادر الفندق.

بحسب وصف أبي، الفيلا قريبة من الفندق، تمشي إليها على الأقدام، بخمس دقائق تصل إليها.

لا يحتاج إلى مُصَوَّر، ولا إلى خريطة، طالما حدثه أبوه عنها، ولطالما وصفها له، وعرض عليه صورها من الداخل والخارج.

في الشارع الرابع، بعد الفندق، على اليد اليمنى، تنعطف، الفيلا في الزاوية، أكبر فيلا في الحي كله، وأجمل فيلا. هل هي حقيقة أجمل فيلا؟

هي مجرد هيكل بناء، هيكل إسمنتي أسود، أعمدة، وأرضيات، هي أرضيات وأسقف، ولا جدران بعد لتقطيع الفراغات الواسعة إلى غرف، هي حقيقة رائعة، بل مدهشة، توحي بالقوة والغنى والفخامة.

كانت ستكون أجمل فيلا، في الحي كله، بل هي أجمل فيلا، ولو كانت مجرد هيكل إسمنتي.

ثلاثة أدوار، تطل على ثلاث جهات، الشـــرقية، والجنوبية، والغربية، ثلاث شرفات على شكل نصف قوس، كل شرفة بعرض أربعة أمتار، وطول اثني عشـر مترًا، في الحديقة بركة للسـباحة، ومغارة محفورة في الأرض، ومرآب لأربع ســـيارات، وثلاث غرف للحارس وزوجته وأولاده. في كل دور تسع غرف، وثلاث حمَّامات، وبهو استقبال واسع.

الفيلا لك يا ولدي، أنا ســـجلتها باســـمك، أودعت لك في المصـــرف خمســـين ألف دولار، يجب أن نرجع إلى الوطن، غبنا عنه ثلاثين عامًا، حان الوقت للعودة إلى الوطن.

وأرسل زفرة طويلة، ثم أضاف.

عد أنت، لن أعود أنا، أمضـــيت ثلاثة أربـاع عمري في الغربة، بلغت الســـبعين، تعبت وشـــقيت لأجلك، بنيت الفيلا لك، أنت وحيدي، لكن تركتها وســـافرت، هي كما يقال على العظم، مجرد هيكل، تحتاج إلى إكساء، طلاء وديكورات وخشب وسيراميك وحمامات، ســـوف تتعب أنت في إكســـائها، لكن هناك مكاتب هندسـية في البلد، ومهندسـون، سـلِّمْها إلى مكتب هندسـي، خلال بضـعة أشـهر تستلمها وفق المواصـفات التي تريد، هذا أفضـل من أن تتولى الأمر أنت بنفسك.

وإذا شئت، يمكنك التعديل في توزيع الغرف، وتقسيمها، هي ملكك، وهي باسمك: عمار بن أحمد.

ثم ابحث عن بنت الحلال، سـوف أحول لك كل ما تطلب، غادرتُ البلد وأنا أمشي على قدميَّ الاثنتين، ولا أريد أن أرجع إليها وأنا على كرسـي متحرك، يكفيني أنك سـتعود أنت إلى الوطن، أنا دفنت هنا في الغربة أمك، وهيأت لنفسي قبرًا إلى جوارها، سأموت هنا في الغربة، كارهًا، مضطرًّا، الوطن أغلى وأجمل، لكن سأموت هنا، طبعا أنت لا تعرف عن الوطن أي شيء، ولكني حدثتك عنه كثيرًا، حملتك إلى الغربة وعمرك ثلاث سـنوات، وهنا نشـأت، أنت الآن في الثلاثين، أريـد لـك العودة إلى الوطن بـدلًا مني، الوطن أمُّنا، وأنا أعيدك إليه طبيبًا جراحًا ناجحًا، يمكنك تحويل الفيلا إلى مشفى، لك ما تشاء، أنت حر، سند تملُّك الفيلا في حقيبتك.

أدهشـــه الحي، هو راق حقيقة، فيلات حديثة، وشـــوارع عريضة، وأشجار على الرصيفين، نظافة وتألق، وأضواء، وسيارات حديثة، والفندق فخم، وفي الطريق إلى الفيلا مقاصـــف راقية، حي ممتع وجميل.

حقيقة الوطن جميل، ليت أبي لم يغادر، ليتني عشـت هنا، وتنسمت هواء الوطن.

يا ولدي، ستجد شيخًا عجوزًا في عمري، يسكن الفيلا، اسمه أحمد، كاسـمي أنا، أنا أسكنته في الغرف الثلاث المخصـصـة له، هو قادم من الريف، عنده قطعة أرض صـغيرة، باعها وتزوج، ترك القرية، وعمل حارسًا في أثناء بنائي الفيلَّا.

قد تلتقي بابنه عمار، هو أصغر منك بسنة ونصف، يوم ولدت أنت أحضر لي من القرية خروفًا، هدية، مع أنه فقير، هو طيب جدًّا، يستحق الخير، فرح بك كثيرًا، ثم حملت زوجته، استأذن مني أن يسمي المولود إذا كان ذكرًا باسمك، عمار، ووضعت زوجته ولدًا، سماه باسمك: عمار.

طوال ثلاثين سنة كنت أحوِّل إليه كل ستة أشهر مبلغًا جيِّدًا، كي يحافظ على الفيلا، ويبقى فيها.

أظنه رزق بابنتين، انقطع التواصل فيما بيننا، ولا أعرف عن حياته، لكن لم أنقطع عن تحويل مبلغ جيد إليه كل ستة أشهر.

قد تجده سكن في الدور الأول، سامحه، ولكنه حتمًا سوف يخلي لك هذا الدور إذا كان قد سكنه، اتركه وأسرته، اتركه يعمل عندك في الفيلا، يحرس، ويعنى بالحديقة، وأثث له الغرف الثلاث المخصصة له، أثثها بما يليق بالفيلا، لا تقصر في حقه، حفظ لنا الفيلّا، طوال هذه السنوات.

يكاد يعرف الطريق، كأنه مشى إليه من قبل، لكن الفضول دفعه، فاستوقف رجلًا، وسأله:

- يا عمّ، أين فيلّا عمّار؟
- في الشارع الرابع، عند الزاوية.
- هل هي بعيدة؟
- لا، أبدًا.

ومشـى، الطريق صـاعدة، النسـمات الصـيفية ممتعة، الليل جميل، بل الوطن هو الجميل.

حتما أنا بحاجة إلى والد عمار، سـوف أسـتعين بخبرته، وبمعرفته بالحي والجيران، لن أخرجه من الفيلا.

طالما حلمت بالعودة إلى الوطن، لا أعرف فيه أحدًا، لكن سـأتعرف إلى الناس، إلى أهلي، سـأحول الفيلا إلى مشـفى وأبدأ العمل، سـأشـتري فورًا شـقة صـغيرة، في هذا الحي الراقي، قرب المشفى، قرب الفيلا، لكن من المؤكد أني لن أجد هنا شقة صغيرة، العمارات المطلة على الشـارع كلها فيلات، لكن لا بد أن أجد في شارع قريب شقة صغيرة في عمارة.

يجتاز الشارع الثالث، أضواء وزينات، وصوت طرب وغناء.

هذه هي فيلا عمار، كما سماها أبي، باسمي، وكما يعرفها كل الناس، كما يبدو، حتى الرجل قال لي: هناك فيلا عمار.

يقف أمام الأضـواء والزينات، ويرى الباب مفتوحًا، وصـوت طرب وغناء.

يستوقف رجلًا:

– يا عم، ما مناسبة هذا الفرح في هذه الفيلا.

الرجل يقف، يرسل زفرة، ثم يتكلم:

– آه يا ابني، الدنيا حظوظ، انظر، صـاحب هذه الفيلا، لا أعرف عمله، كيف جنى الأموال وبنى هذه الفيلا؟ لا أعرف، قالوا هو قادم من الريف، باع أرضه واشترى هذه الفيلا، لا أصدق.

ويسأله:

– هل أنت من سكان هذا الحي؟

يضحك، يرسل زفرة، ثم يضيف:

– وهل يستطيع ممرض صغير مثلي السكن في هذا الحي؟ أنا ممرض، هناك وراء الفيلا شـــارع، فيه مشـــفى لغســـل الكلى، مشفى مجاني، أسسه رجل فاضل، وأنا ممرض في هذا المشفى، أعمل فيه في المساء، من الثالثة إلى التاسعة.

– وكيف عرفت قصة صاحب هذه الفيلا؟

يضحك، يضيف:

– هكذا قالوا لي في المشـــفى، كلّما مررت بالفيلا أدهش، وأســأل نفســي، لماذا اشـترى الرجل هذه الفيلا، أو لماذا بناها ولم يكمل إكســاءها، واكتفى بالســكن في الدور الأرضـــي، وهو على الحجر والإسـمنت، ولا ديكور ولا حتى أبواب ولا نوافذ، فيلا غريبة يا ولدي، لذلك ســـألت عنها، وبصـــراحة، حتى الآن لا أعرف الحقيقة، أنا أطل من نافذة المشـــفى على المشـــهد الخلفي لهذه الفيلا، أحس بها كئيبة موحشـــة، وأنا أرى العجب، وفي كل مرة أسـأل عنها، وفي كل مرة يأتيني جواب مختلف، تسـمع من الناس حكايات مختلفة.

– وماذا يقول الناس؟

– مرة سـمعت أن صـاحبها هرب من البلد، صـاحبها تاجر كبير، بنـاها، ثم أفلس، ومرة قـالوا: بنـاها من مـال زوجتـه، ولكن

زوجته ماتت، فحزن عليها، وتوقف عن إكمالها، وأقسم ألا يسكنها، ومرة قال لي رجل من الحي: في أثناء بناء الفيلا وقع عامل من السطح ومات، فهرب صاحب الفيلا، لأنه قبل يوم اختلف معه، وخاصمه، خاف من الاتهام برميه من السطح.

أبي طيب جدًا، سمح، وكريم، يبذل ويعطي، ولا يخاصم، آه، ليتك تعرف أبي.

ويميل عليه ثم يهمس:

– اسمع مني، أنصحك، لا تسأل، أنا علمت، والكلام بيني وبينك، ولا أعرف الحقيقة، قالوا صاحب الفيلا الأول شخصية مهمة، لكنه هرب، لأسباب مجهولة.

يكاد يضحك، لكنه يسأل:

– ولماذا سموها فيلا عمار؟

– لأن صاحب الفيلا، عنده ولد اسمه عمار، والليلة حفل زواجه.

يشكره، ويعبر الشارع نحو الفيلا.

لا أصدق، هل يخفي عني أبي شيئًا، أكاد أشك، أبي صادق وصريح، ولكن، ربما، كل شيء محتمل، من سوف أسأل؟ والوقت متأخر؟

الأضواء باهرة، وصوت الغناء والطرب يملأ الحي.

في الباب شاب يقول له:

– تفضَّل أستاذ، أهلا وسهلا بك، في عرس عمار.

يحار، يتردد، يجيبه:

– لكنني غير مدعو؟

– العرس مفتوح للجميع، لا تحتاج إلى دعوة، وسوف تستمتع بالمطرب الشعبي أبو عبدو، وفي نهاية العرس عشاء.

يشكره، يرجع منحدرًا نحو الفندق. يطلب من عامل الفندق أن يرسل إلى فيلا عمار باقة ورد فاخرة. يسأله عامل الفندق:

– باسمك الشخصي، أستاذ عمار؟

يتردد، ثم يضيف:

– لا، باسم والدي: أحمد عبد اللطيف.

– ورقم الهاتف؟

– لا ضرورة له.

يدخل إلى غرفته، يتصل بوالده، يروي له كل ما سمع، الأب يعلق:

– الحقيقة غالبًا ضائعة يا ولدي، أنا هاجرت لما توقف في بلدنا استيراد الخيوط، وماتت صناعة النسيج، في الوطن بعت المعمل وآلات النسيج كلها بأرخص الأسعار، وجئت إلى بلاد الغربة.

– أعرف يا أبي، ولكن حكايات الناس.

– هذه طبيعة البشر، تستهويهم الحكايات والأساطير، أكثر من الحقيقة.

– سامحني يا أبي، أزعجتك.

– لا، لم تزعجني أبدًا، وأنا حكيت لك هذا من قبل عدة مرات، أنا أسست هنا صناعة النسيج، وأنت تعرف المعمل وآلات النسيج الحديثة، ورأيت في السنوات الخمس الأخيرة كيف توسع المعمل، وأنا كنت أتمنى لو تختص بهندسة النسيج، لكن طموحك كان دراسة الطب، وسرتني رغبتك في العودة للوطن وافتتاح مستشفى.

– الفضل لك يا أبي، حبك الوطن وشوقك إليه، وأحاديثك عنه، كل هذا جعلني أفكر في العودة إلى الوطن.

ويصمت، ثم يسأل:

– والآن، ماذا أفعل؟

يجيبه الأب:

– القرار لك، افعل ما تشاء.

يقف أمام مرآة طويلة تملأ باب خزانة الثياب، كأنه أول مرة يكتشف الشبه الكبير بينه وبين أبيه.

المُلَحِّن العجوز

هو مستشارها الأول، مستشار غير رسمي، ومن غير أجر، وهو غير معروف.

أي أغنية ستغنيها تعرضها عليه، تأخذ رأيه في كلماتها ومعانيها وقيمتها الفنية والجمالية، وبعد أن تُلَحَّن، وتُجري عليها عدة تدريبات، تُسمعه لحنَها، وتؤدِّيها له غناء، إذا دُعيت إلى حفلة، أخذت رأيه في اختيار المكان، وإذا لم يوافق ألغت الحفلة، ولكنه كان يوافق دائمًا، حتى الثوب الذي ستسهر فيه في الحفلة، تأخذ رأيه في الثوب، في لونه، في زيِّه، ينصح لها ببعض التعديلات الطفيفة، حتى إنها تشاوره في المبلغ الذي سيُدْفَعُ لها، وغالبًا ما ينصح لها أن تطلب الأكثر، تقديرًا لقيمتها ومكانتها، وفي بعض الحفلات يكون معها مطرب آخر، أو مطربة، وتشاوره في الموافقة أو الرفض، ودائما يشجِّعها على الظهور مع أي مطرب آخر أو مطربة، لكي تحظى بجمهور أكبر وانتشار أوسع. الصغير يكبَر معك، والكبير تكبَرين معه، الروح الفردية تقتُل الفن، روح الجماعة هي حياة الفن، بل هي حياة الحياة، هكذا يقول لها دائمًا.

يعرفها أكثر مما يعرف نفسه، وتعرفه حق المعرفة، أكثر مما تعرف نفسها أيضًا، قالت له مرة: أنا عرفتُ نفسي من خلالك

أنت، أنت مرآتي، يعرف كلٌّ منهما الآخر، في العمق، في الروح، في المزاج، في المشـــاعر والعواطف. يعرفها عصـــبية، متقلبة المزاج، سـريعة الغضـب، دائما تشـكو إليه من الوحدة والقلق، قد تتصل به في الثانية فجرًا، بعد عودتها من حفلة غناء، لتحدثه عن تعبها، وانزعاجها من بعض الماجنين العابثين، ومن ســـوء تقدير الجمهور، ومن المطربـة الســـخيفـة التي شـــاركتهـا الحفلـة، أو المطرب، أو من فرقة العازفين، يصغي إليها باهتمام، وينصح لها.

تعرفـه هـادئ المزاج، إلى حـد البرود، بينهمـا في العمر تفاوت كبير، يزيد على العشرين عامًا، تثق به الثقة كلها، يشجعها التشـــجيع كله، غير مرة غضـــبت منه، ثم عادت واعتذرت إليه، دائما يتقبَّلها بالعفو والسماح، يراعي مشاعرها، يقدر طبيعة عملها، ســـهر، وحفلات، ووحدة، وعزلة في مجتمع يريد الفن، ولا يحترم الفنان، ولا يقدره.

حقيقة هو مستشارها الأول، هو ذواقة، شاعر ورسام، يجيد العزف على العود، هو ملحِّن، لكنه هاو، وليس محترفًا، لم ينشـر أي ديوان شـعر، ولم يشـارك في أي حفلة، وضـع ألحانًا، وضـع كلمـات أغنيـاتٍ كثيرة، لكن أي أغنيـة من أغـانيـه لم تنفذ، بقيت مشـروعًا، اكتشـف كثيرًا من المواهب، انطلق أصـحابها في عالم الفن، ونسُوه، ذهبوا إلى العاصـمة، ونسوه، هو معتكف في بيته لا يغادره، معتكف في أقصـــى البلاد، هي ما التقته، وهو ما التقاها، طوال صـحبة امتدت عشـرين عامًا، ما رآها إلا من خلال صـورها

المنشورة في الصحافة، وعبر شاشة التلفزيون، وهي ما رأته ولا تعرف شكله ولا هيئته، تعرف فقط صوته.

هو بعيد عن مدينتها، مع أنهما يقيمان معًا في بلد واحد، وغير مرة أقامت حفلة في مدينته، وأرسلت إليه عدة بطاقات، فكان يعتذر إليها، يتذرع مرة بأنه في مدينة أخرى، ومرة يحتج بأنه مسافر إلى الخارج، إلى أن بدأت تظن أنه مشوَّه أو عاجز أو دميم، أو تظنه عدُوًّا للمرأة، مع أنها لمست لديه عواطف راقية نحوها، لا تخلو من إعجاب، بل لا تخلو من مداعبات هادئة.

أقامت عدة حفلات في مدينته وفي كل مرة كانت تبحث عنه بعينيها بين الجمهور، ولكن أنَّى لها أن تعرفه، كانت على يقين بأنه يحضر، ببطاقة يشتريها، لا بالبطاقة التي كانت ترسلها إليه، لأن البطاقة التي كانت ترسلها عبر البريد، أو عبر الشركات الناقلة، كانت ترجع إليها وقد كتب تحتها: لم نعثر على العنوان، أو لم يحضر مَن يستلمها.

هذا التواصل كان يجري عبر الهاتف، ثم أصبح عبر الهاتف الجوال، وما رآها، ولا رأته، إلا بعد أن جرى التواصل عبر الواتس أب، في البدء بقي يتواصل معها بالصوت والكتابة عبر الواتس، وظل على ذلك بضع سنين، وكانت تلحّ عليه أن تراه عبر الواتس، وأخيرًا اقتنع، وبدأ التواصل بينهما بالصوت والصورة.

فوجئت به عبر الواتس، توقعت أنه أكبر في العمر، أو أقل نضارةً أو شبابًا، فوجئت حقيقة، يتمتع بحيوية ونضارة تفوق حيوية

الشـــباب، ويمتلك من الرزانة والوقار وهو يحدثها عبر الواتس، وتراه، أكثر مما كان يمتلك من قبل، بدا عبر الصـــوت والصـــورة أكثر اتزانًا، ولكن لم يفقد حيويته.

وعبر الواتس رأت مكتبته الضخمة، رأت رفوف الأسطوانات، رأت اللوحات الفنية التي تملأ الجدار في مكتبه حيث يكلِّمها، رأت العود الذي يعزف عليه، تمنت عليه أن ترى ســـائر غرف منزله، اعتذر، أكد لها أنه يعيش وحده، زوجته توفيت قبل عشـر سـنين، وليس عنده ســـوى ولد وحيد، غادره إلى الخارج، وتركه وحده، الوحدة هي الحياة التي عاش فيها حتى قبل موت زوجته ورحيل ابنه.

بعد التواصـــل بالصـــوت والصـــورة ازداد اعتمادها على اسـتشـارته، تعرض عليه ثوبها، بدلا من أن تحدثه عنه، تغني له اللحن، تؤدي الأغنيـة، وأحيـانـا تخرج عن اللحن، تريـد اختبـاره، فينبِّهها، وغير مرة ارتدت ثوبًا فاضـحًا، فنصـح لها ألا تظهر به، وعدة مرات ظهرت عبر الواتس وهي في الســـرير، وبثياب النوم، ولكنه كان يرجوها أن ترتدي ما هو مناســـب، متذرعًا بالبرد، والخوف على صحتها.

شاورته مرات عدة في رجال تقدموا إلى خطبتها، من أوساط وبيئات فنية وثقافية وتجارية، وفي كل مرة كان ينصح لها بصدق، بل كان يشـــجعها أحيانًا على قبول هذا، أو ذاك، أو التعجيل بالزواج، قبل أن يتقدم بها العمر.

ومرات كثيرة كانت تغضب منه، ولا سيما بعد أن بدأ التواصل بالصوت والصورة. لماذا لم تتصل بي اليوم؟ لماذا لم تكتب لي على الأقل؟ لماذا لم تسأل؟ لماذا هاتفك الجوال مغلق؟ وتبدي انزعاجًا شديدًا، تود لو بقي معها على الشبكة أوقاتًا أطول وأكثر. أعرف أنك متقاعد، وليس عندك عمل، ليس عندك أحد، وأنت في البيت وحدك، في مكتبك، التزامات قليلة، بل ليس عندك التزامات، لماذا لا تتصل؟

بدأت تخاطبه مباشرة، بغلظة، وفجاجة، وعنف، لأنها عرفت أن لها مكانة عنده، كثيرًا ما ينفجر غضبها، فتلومه بقسوة، مرة قالت له: "سأقاطعك إلى الأبد، سأتخذ منك الموقف الحاسم والحازم".

أحيانا يحس أنه يحتاج إليها، بقدر ما هي تحتاج إليه، لكنه لا يريد أن يبوح أو يعترف، ويحس أنها هي كذلك، كأنَّ كلًّا منهما يكاد يقترب من الآخر، ولكنهما كانا كخطين متوازيين، لا يلتقيان، إلا في اللانهاية. ومرة اعترفت له وقالت: "روحي وروحك تلتقيان، ولكن الجسدين لا يلتقيان". بحثت عنه في الشبكة، فلم تجد له اسما، مع أن اسمه حقيقي.

هو لا يعرف كيف ستنتهي العلاقة بينهما، وهي لا تعرف، كل منهما يسأل: "وماذا بعد؟ إلى متى". خاصمته أكثر من مرة، واعتذرت إليه، وسامحها. قاطعها أكثر من مرة، وتوقف عن الاتصال بها، ثم عاد إلى الاتصال. كيف ستكون النهاية، هو لا

يعرف، كيف ستكون النهاية، هي لا تعرف، لا شك في أن لكلِّ بداية نهاية. السفر لا يحل المشكلة، التواصل بينهما مستمر، بوجود الشبكة ووسائل التواصل.

أخيرا قررت الإعلان عن حضوره في حياتها، هو مستشاري الأول، ومدير أعمالي، ستنشر الخبر في الصحف في المجلات الفنية، ولا سيما بعد أن أصبحت مشهورة، وأغنياتها تبث يوميًّا في معظم القنوات الفضائية، وبعد أن أصبحت عضوًا في نقابة الفنانين، ولكنه ليس بالرجل المشهور، بل ليس له حضور، ولن يسمح للصحفيين بالتعرف عليه أو تصويره. هو لم يفكر في تطوير العلاقة أو إنهائها، العلاقة؟ وهل هي علاقة؟!

أخيرا قرر هو أن يبادر.

كثيرا ما كانت تتهمه بالبرود العاطفي، والتحجر، بل التكلس، ومرة اتهمته بالعجز الجنسي، ثم سارعت إلى الاعتذار، وأكدت أنها كانت تمازحه، تذكر تلك المواقف، قرر أن يلمح إلى العواطف والمشاعر، بل إلى الرغبات والأهواء، أحس أن لديها ميلًا للاستجابة، لكنه فَكر: هناك أسباب تمنعه من التلميح، أكثر من الأسباب التي تسمح له بذلك، سرعان ما توقف عن التلميحات.

لو جاءت إليه في البلد الذي هو فيه، ولو ذهب إليها في البلد الذي هي فيه، ولو التقيا، فلن يمارس الجنس معها، قد

يمارســه مع أي واحدة أخرى غيرها، إلا هي، يريد أن تظل كذلك، لا يريد أن يغير طبيعة وجودها في حياته.

رآها مرة في الحلم، وهو يضــمها إلى صــدره، أحس بنهديها ينضــغطان على صــدره، هم بتقبيلها، أحس بأنفاســها الدافئة، لكن فُتح الباب ودخلت جدته، في الحلم دخلت جدته، اسـتيقظ، شـاعت في روحـه بهجـة، تمنى أن يتكرر الحلم. قرر أن تبقى في حياتـه هي كما هي.

كانت هي تتألق، وتتسـع شـهرتها، بدأت تزور عواصـم في العالم، عرضـت عليه أن يسـافر معها، على نفقتها، بصـفته مدير أعمالها، اعتذر، فاجأته: أقول للصـحفيين "عشـيقي"، ضـحك كثيرًا، أكد لها أنهما لا يمكن أن يظهرا معًا. طوال حياته لم يغادر بلده، طوال حيـاتـه لم يغـادر مـدينتـه، حـاليـا لا يكـاد يغـادر منزلـه إلا للضرورة.

تمنت لو يموت، لكن إذا مات، ماذا ســـتفعل نحوه، كيف سـيكون الوفاء، تمنت لو كانت شـاعرة، طلبت من عدة شـعراء أن يكتبوا أغنية حزينة عن موت صـديق، كتبها أحد الشـعراء، ولحنها ملحن، وغنتها، وهي تبكي. قررت إرسـالها إليه. لكنها تراجعت، لم تسجلها، ولم توزعها.

ما المشـــكلة، لماذا يفكر هو في النهاية. كم نحن أغبياء، عندما نسـافر لا نفكر إلا في الوصـول إلى المكان، متى سـنصـل، ولا نستمتع بالرحلة في الطريق، ولا نكاد نرى ما في الطريق. لماذا

تفكر في النهاية، دع الحياة الأيام تمر بكل ما فيها من سخف وتكرار ممل، أو بكل ما فيها من سمو ورقي ونقاء، أو بما يمكن أن يكون من مفاجآت، هي أجمل من متعة الوصول، هي أجمل من النهاية، أيا ما كانت النهاية، ولماذا لا يكون التواصل والاستمرار هو نفسه النهاية.

لكن حدث ما هو متوقع. شنت عليه حملة غضب، قررت مقاطعته، أغلقت الواتس، حظرته، هكذا تخونني، هكذا بعد عمر من التواصل معي وحدي تتواصل مع غيري، هكذا بعد أن وصلت أنت بي إلى السماء السابعة تنحط بي إلى الأرض الثامنة؟ تريد تحطيمي؟ لا، انتهت العلاقة بيننا، وداعًا.

أرسل إليها عدة رسائل، اتصل بها، ولكن من غير جدوى.

جارته عندها ابنة وحيدة، اكتشف موهبتها يوم كانت في السابعة من عمرها، كل يوم يدرِّبها، بلغت الثانية عشرة، أحيت عدة حفلات، بلغت الخامسة عشرة. أرسل إليها تسجيلًا لصوتها، واقترح عليها أن تشاركها المطربة الشابة في أول حفلة قادمة لها.

تباعد الخطان المتوازيان.

في اليوم التالي وصله بالبريد شريط سجلت عليه قصيدة الرثاء الحزينة.

عين الكورونا

خرجتُ من مجمع أمل التجاري وأنا أدفع أمامي عربة المشتريات، قُدتها إلى السيارة، ثم أفرغت محتوياتها في صندوق السيارة، ورجعت بالعربة إلى المجمع، نزعت الكمامة عن وجهي ورميتها في سلة للمهملات أمام باب المجمَّع.

لماذا لا توضع سلة خاصة بالكمامات، ثم يعاد تدوير هذه الكمامات؟ يصنع منها مشدات لليد أو القدم أو ضمادات، أو كمامات جديدة، أو يصنع منها جوارب للرجال، أصبحنا أمام ظاهرة جديدة هي قُمامة الكمامات، أحيانا أرى كمامة على الرصيف ملقاة، أكاد أشم فيها أنفاسًا عطرة لصبية، أو أرى فيها من الداخل أثارًا من أحمر الشفاه، يا للشفاه الممتلئة المكتنزة، كم يؤلمني أن تُرمى تلك الأنفاس الأنثوية العطرة على الرصيف، وأحيانا أرى صفوفًا من الكمامات منشورة في شرفة على حبل الغسيل فأتخيل الخدود والشفاه التي كانت تختبئ وراءها.

لم تكن مشترياتي كثيرة، راجعت قائمة الحساب دققت فيها، أربعة أنواع من الصابون، سائل للجلي، سائل لتنظيف الأراضي، مواد تنظيف خاصة بالغسالة الأوتوماتيك، خمسة ليترات معقم، مع بخاخ، صابون عادي، صابون طبي، شامبو ثلاثة أنواع، استوفيت القائمة التي وضعتها زوجتي.

لم أكن أتوقع دفع مثل هذا المبلغ، كنت أدفع نصفه، ليس قبل سنة ولا سنتين، بل قبل شهر واحد، اليوم دفعت ضعفه، كل

هذا من أجل الكورونا، وما كنت أشـتري المطهر والمعقم للأيدي، ولا المعقم للأرض وقبضات الأبواب، أوه.

ويرن الهاتف الجوال، هذه زوجتي، ماذا أيضًا، لا ما غادرت المجمع، بل غادرته، أنا في السـيارة ولم أنطلق، ما أزال أمام الباب، لا شـك، في المجمع كل شـيء، ماذا؟ مداسـات الأقدام جديدة للسيارة وأمام باب الدار، وعند المجلى، وأمام المغسلة، وفي الحمام، عشـرة مداسـات من أنواع مختلفة، ولماذا؟ يجب غسـلها وتعقيمها، بل يجب تبديلها كل شـهر؟ ومن قال هذا؟ الكورونا عزيزة ومقدرة هي لا تنتقل مع الأقدام والأحذية، تنتقل مع الأنفاس والشـفاه والكلمات والقبل، لا، لن أرجع إلى المجمع، الشـهر القادم نبدلها كلها.

وأنطلق بالسيارة. شمس تموز حارقة، والسيارة فرن مشتعل. المداس تحت قدمي في السـيارة مملوء بالغبار، مع أنني أمس خرجت بالسـيارة من المغسـلة، أخذت السـيارة حمامًا دافئة من الداخل والخارج، وتم تعقيمها بالكلور.

وأنعطف نحو اليمين لأدخل في الشارع الرئيس، وإذا بصوت زقزقة، هل هو فأر أم قطة؟ لا، هو من المحرك، بل من العجلات؟ وأنطلق بها، فيغيب الصوت، أدوس على المكابح فيعلو الصوت، هل أصـابت الكورونا العجلات أو المحرك؟ وأدوس على المكابح، فكأن زجاجًا يتكسر، لا أعرف ما الذي جرى؟ أوقف السيارة.

وأتصـل بصـديقي مهنَّد، أنا هنا أمام مشـفى حياة، بجوار مجمع أمل التجاري، أنتظرك.

ويصل، يركن سيارته أمام مشفى حياة، ينزل من سيارته، يميل نحو العجلة الأمامية، يدق عليها بيده، ثم يقول لي، وهو من غير كمامة:

– هيا، إلى الحي الصناعي.

– وهل عندنا حي صناعي؟

– هو حي تصليح السيارات، كل مصلح هناك يستطيع تصنيع دبابة وسيارة وغواصة، هناك مصلح أعرفه، المعلم جميل، وأظن البيليه في العجلة اليمنى بحاجة إلى تغيير.

– تفضل هذا مفتاح السيارة، لا أعرف هذا الحي، ولا أعرف الطريق إليه.

أستوقفه، أقول له:

– انتظر، أنت ركنت سيارتك هنا في موقف سيارات الإسعاف الخاصة بالمشفى.

– لا تقلق، صاحب المشفى مدحت، صديق عزيز.

يأخذ مكانه وراء المقود، وأنا إلى يمينه، السيارة تسير على زجاج يتكسر تحت العجلات، صديقي يقود بهدوء والصوت يعلو، يقول لي:

– الناس من المجمع إلى المشفى، في المجمع يصابون بالكورونا، وفي المشفى يعالجون، الآن لن تجد لك أي سرير، بعض الأغنياء حجزوا أسرَّة لهم ولأولادهم، السرير في الليلة مئة ألف، هل أحجز لك؟

بلهجة مختلفة، أقول له:

– لماذا لا تسرع؟

– أخشى انفراط البيليه، وعندئذ نحتاج إلى سحبها بسيارة.

يتكلم وهو يقود السيارة:

– مدحت، صديقي، صاحب المشفى، حظه في سابع نجم، اشترى المشفى، وكان رقم المحضر عشرين، وسماه باسم زوجته حياة، واشترى المبنى المجاور، وحوَّله إلى مجمع تجاري، وسماه مجمع أمل باسم بنته، وللمصادفة، كان رقم المحضر ٢٠، حديقة المشفى لصق حديقة المول، بينهما سور، لكن هذا تابع للمنطقة الرابعة، وهذا تابع للمنطقة الخامسة، كل الناس حذّروه، انا لا أقدم على مثل هذا العمل.

– والسبب؟

– يقال إذا تطابق الرقمان، فإما خير كبير، وإما ضرر كبير، لا حظ نحن في عام ٢٠٢٠ تطابق الرقمان، تذكَّر الأضرار التي لحقت بالعالم، كورونا وغلاء أسعار وحروب، أنا لا أغامر، أنت تعرفني من عشرين سنة، تركت مهنة التدريس، واشتغلت في تجارة السيارات، وأنت بقيت معلم مدرسة، نسينا الفكرة الأساسية، تطابق الأرقام، أنا طوال عملي في تجارة السيارات ما اشتريت أي سيارة يمكن أن ترى فيها رقمين متطابقين.

أضحك، وأقول له:

– هذه خرافة، وهل تصدق الخرافات، وبعد ذلك، دائما، هكذا الحياة، ضرر ونفع، شر وخير، تطابقت الأرقام أو اختلفت.

– تذكر معي، عام ١٩١٩، قامت الحرب العالمية الأولى.

– لأ، الحرب العالمية الأولى بدأت عام ١٩١٨

– نعم بدأت عام ١٩١٨، لا أختلف معك، لكنها اشـــتدت وكبرت عام ١٩١٩، أنا طبعًا، مؤمن بالله وبالقضـــاء والقدر، ولا أصدق الخرافات، لكن الحذر واجب، ولو كانت خرافة، هي خرافة، لكن لها أصل، من تجارب الناس، وإذا عملنا بموجبها فلن نخسر.

*

يدهشـني الحي ونحن ندخل فيه، هو أشـبه بالمتاهة، شـوارع ضـيقة، متشـابهة، متوازية، ومتقاطعة، يتسـع الشـارع الواحد منها لسـيارة ونصـف السـيارة، ويرتفع على جانبي الشـارع عمارات من ستة أدوار، عمارات شبه عشوائية، هي في الأصل من ثلاثة أدوار فقط، ولكن فجأة ارتفعت إلى سـتة، وبعضـها ارتفع إلى سـبعة، العمارات متقابلة، الجار يستطيع أن يمد يده في الصباح ليصافح جاره من الشـرفة، والعمارات كلها قائمة على محلات مفتوحة كلها لتصـليح السـيارات، ما من محل إلا وقفت أمامه بالعرض سـيارة، نصـفها على الرصـيف، ونصـفها الآخر في الشـارع، وبصـعوبة يمكن أن تمر إلى جوارها سيارة أخرى.

بحذاقة بارعة يقود صديقي في تلك الشوارع الضيقة، بل هي أزقة ضـيقة، كالأزقة التي هي في الحي الشـرقي حيث كانت تقع دار جدي الذي لولا الميراث منه ما اسـتطعت شـراء هذه السـيارة، وما كنت أستطيع شراءها لولا نصيحة صديقي مهند وخبرته.

من فوق في شـــرفات العمارات ونوافذها تنبثق مثل بركان روائح الزيت والبصـــل المقلي والبندورة والبهارات والثوم، وتهوى الروائح على الخندق الذي ينشق في الوسط بين العمارات، لتختلط بروائح البنزين والمـازوت وزيـت المحركـات المحروق، وتتعـانق

الروائح لتشكل عطرًا ما عرفته أشهر مصانع العطور، ولا عرفته مروج البنفسج أو الغارديني أو التوليب، وتنداح الروائح فوق الطين اللزج وهو يغمر الشارع، مع أننا في منتصف الصيف، يمازج الطين زيت المحركات المراق على أرض الشارع الضيق، وعلى هذا الإيقاع من الروائح ثمة إيقاع من الضرب على صاج السيارات.

– هي متاهة، الشوارع كلها متشابهة، هل تعرف محله؟

– هو صديق عزيز، مثقف، مهندس ميكانيك، ترك الجامعة في السنة الرابعة، ونزل للحياة العملية، هو صديق ولن تجد مثله في تصليح السيارات.

السيارة تغطس مثل سفينة في حفر، وتنهض فوق مطبات، كأنها في بحر لجي مواجهة حُفَرًا ومنخفضات ومرتفعات ترابية. وضمن هذا الإيقاع الجميل تغرد السيارة، أجل تغرِّد، وترسل أصواتًا لا أعرف هل هي أصوات فرح أم أصوات عزاء؟ هي فرح لها، لأنها ستحظى بحلية معدنية جديدة هي سوار من كروم، وهي حزن لي، لأنني سأدفع دراهم بل ليرات ذهبية.

أمام محل هو مثل سائر المحلات لا يتميز بشيء في هذا الزحام يوقف صديقي السيارة، يقتحم بها الرصيف، يعلوه، بنصفها، طوليًّا، ويقف. ثم ينزل، أفتح الصندوق أمام مقعدي في السيارة، وأستل كمامة جديدة من بين حزمة من الكمامات، أضعها على وجهي وأنزل.

من المحل يخرج رجل عملاق، ضخم الجثة، في بدلة زرقاء، يداه ملوثتان بالزيت والشحم، يرحب بصديقي:

– أهلا أستاذ مهند

ويلتفت نحوي:

– أهلا بالأستاذ.

وينادي غلاما:

– يا حسان هات كرسيين للأساتذة، وجهز لنا إبريق شاي.

ويخرج من عمق المحل حسان، يحمل كرسيين يضعهما على الرصيف بجوار السيارة.

حسان في الثانية عشرة، يداه ملوثتان بالشحم والزيت، وأنفه، وجبينه، وذقنه، ووجنتاه، شعره طويل، يغطيه بقبعة زرقاء ملوثة بالزيت والشحم.

في داخل المحل سيارة غطاؤها الأمامي مرفوع، وعاملان اثنان ينحنيان عليها، يغوصان بجسمهما فيها، وأيديهما تعمل فيها، لا أعرف ماذا يفعلون، هل يجريان عملية قيصرية ليستخرجا من رحمها سيارة جديدة؟ سيارتي عجوز، لا شك أنها ستخرج من تحت أيديهما مثل العروس، ولولا الميراث من جدي، ولولا نصيحة صديقي مهند وخبرته، ما كنت اشتريتها.

صديقي يبادر موجها حديثه إلى الرجل العملاق:

– صديقي الأستاذ أحمد، مدرس متقاعد، سيارته تغرد مثل الكناري، وأظن البيليه في العجلة اليمنى الأمامية فرطت.

الرجل العملاق:

– تكرم أنت والأستاذ أحمد، أهلا وسهلا.

وينادي الرجلين الغائصين في مقدمة السيارة:

– عبدو وحمدو، بسرعة، اتركوا كل شيء، ابدؤوا بسيارة الأستاذ أحمد.

ويدخل الغلام حاملا بيد إبريق شاي، وبيد ثلاث كاسات دخلت كل منهما في الأخرى، يحضر المعلم منضدة صغيرة يضعها أمامنا، ويصب الغلام الشاي في الكاسات الثلاث.

سطح المنضدة الصغيرة مغطى بالشحم والزيت، الكاسات نظيفة، لا شك في أن الغلام غسلها، ولكن كيف له أن يغسلهما ويداه ملوثتان بالزيت والشحم؟ لا بأس نشرب الشاي بالشحم والزيت بدلا من الشاي بالنعنع والقرفة أو الزنجبيل.

صديقي تناول كأسه، ويرشف منها، ثم يميل علي ويهمس:

– اشرب، وتوكل على الله.

من صندوق السيارة تتسرب ناعمة هادئة رائحة المنظفات والمعقم، داخل المحل مثل فتحة بركان ينفث رائحة الشحم والزيت والمحروق، وللشاي رائحة ناعمة مغرية، ومن شرفة في الأعلى تهمي فوقي رائحة بطاطا مقلية.

المعلم يقول لصديقي:

– أنت صرت المعلم، سأتنازل لك عن المحل، نعم هي البيليه، صار عندك خبرة أكثر مني.

العاملان فكا العجلة، وفي العمق رأيت المعلم يقف أمام آلة، مال علي صديقي، وقال:

– المعلم جميل عنده مكبس، ينزّل البيليه بالمكبس، بعض المصلحين ينزلون البيليه بالطرق، بضربات مطرقة خشبية، وبالضربات يذهب نصف عمر البيليه.

رائحة الشـاي تجذبني، لا أسـتطيع المقاومة، أحمل الكأس، وآخذ رشفة، يا إلهي، هذا ليس بالشاي، هذا مربَّى الشاي، كأن في الكأس نصف كيلو من السكر.

أمام مدخل على الطرف الآخر بوست كهربائي، أمامه ثلاث حاويات تطفح منها القمامة، والأرض من حولها تتناثر فيها أكياس القمامة، وإسفلت الشارع حول الحاويات طين أسود، يسيح فوقه سائل يرشح من الحاويات.

رجل يدفع عربة قديمة من تلك العربات التي يوضع فيها الأطفال السنوات الأولى من العمر، في العربة كيس من أكياس الدقيق، هو في الأصل أبيض، لكن الآن صار أسود. الرجل يوقف تلك العربة بين الحاويات، ويميل بجذعه على الحاويات يبحث فيها، يداه تغوصان في الحاوية، قميصه لا يمكن وصفه، الرجل في نحو الخمسين، لحيته لم تعرف المشط والمقص منذ سنوات، ولا شعره، أدقق النظر، أراه ينتقي بما في الحاوية من علب الكولا المعدنية، ويرميها في الكيس المركون في عربة الأطفال.

يا إلهي، ها هو ذا يرفع إلى فمه علبة الكولا المعدنية ليشرب بضع نقاط مما تبقى فيها، أضع الكأس من يدي، أنهض، لا أصدق ما أرى، لا أعرف، يقول لي صديقي:

– ما ذا بك؟ هل في الكرسي مسمار؟ اشرب كأس الشاي.

ويدخل إلى المحل عامل في بدلته الزرقاء الملوثة بكل شيء، وهو يحمل بيده كيسين، عرفت فورًا ما في الكيسين، رائحة الفول المدمس في الصباح لا يمكن ألا أعرفها، ولا شك في الكيس

الثاني بصـــلة وحبات من البندورة. المعلم أراه في الداخل يترك المكبس، وينادي:

– يا الله يا شباب تفضلوا، تفضلوا يا أساتذة، الفول لا يُفَوَّت، أطيب فول في العالم، من عند ملك الفول، أبو عبدو.

وينهض صديقي، ويقول لي:

– تفضل، الرجل دعاني، يجب تلبية الدعوة.

ويتجه الجميع إلى الداخل، ويتردد الصوت:

– تفضلوا، تفضلوا.

في العمق منضـــدة حديدة عالية، يمســـح وجهها بخرقة، كالعادة، ملوثة بالزيت والشـــحم، ويصـــب الفول في صـــحن بلاستيكي، وبسكين لا أعرف من أين جاء بها، يقسم البصلة أربعة أقسام، وكذلك يفعل بحبات البندورة، ثم يوزع الأرغفة علينا، حقيقة هو المعلم، حتى في دعوتنا وفي تقسيم الخبز.

وتمتد الأيدي إل الصحن، وترتفع إلى الأفواه بِلُقَم كبيرة.

الفول من غير زيت، الأصابع تتناهب قطع البندورة والبصل، الناس شـركاء في ثلاثة، بشـيء من الوجد والهيام والشـبق تغمس الأصابع الخبز في الفول وترمي اللقم كبيرة سريعة في الحلق.

أغمس قطعة خبز مثلهم في الصـــحن، وأنا أرى أصـــابعهم تنغمس في الصـــحن، لذيذ، هو مختلف عن كل أطباق الفول التي تناولتها، هو من غير زيت، ولا كمون، حقيقة في كل حي بائع فول اســـمه أبو عبدو، لكن محل أبو عبدو بائع الفول في الحي الصـناعي هو محل أبو عبدو الأصـلي، وباقي محلات أبو عبدو تقليد، فوله حقيقة مختلف متميز. إيقاع الأيدي وصـخب الأصـابع

والتهافت على الصحن عالم من السحر والخيال، هو الذي صنع الفول المتميز.

ثلاث لقم وأتراجع، وفي النفس رغبة لو تناولت أكثر، ولكن في الحقيقة يكاد الصحن يفرغ.

المعلم يلمح طفلة صغيرة تعبر أمام المحل، لا أعرف كيف انتبه إليها، يناديها:

– حسناء، تعالي كلي معنا فول.

وترتفع الأيادي عن الصحن، الذي لم يبق فيه إلا لقيمات.

وتدخل حسناء، يرفعها المعلم، كأنه يرفع قطعة من سيارة، ثم يضعها على الكرسي، ويناولها قطعة خبز، ويقول لها:

– خذي كلي.

حسناء طفلة في العاشرة، نحيلة، مثل عود النعنع، شعرها أسود، بين يديها رأس دمية بلاستيكية، التقطته من الشارع، تضع رأس الدمية على طرف المنضدة الملوثة بالشحم والزيت، وتبدأ بمسح أطراف الصحن بقطعة من الخبز، تحشو بها فمها.

العمال يرجعون إلى مواضعهم، أرجع وصديقي إلى موضعنا على الرصيف.

ألتفت، عند الحاويات الثلاث أرى شاحنة صغيرة سوزوكي تقف، ينزل منها شاب، يتجه نحو الحاويات، ثلاث قطط أو أربع تفز خارجة من الحاويات، هاربة، الشاب يبحث في الحاويات، ثم يرجع حاملا صناديق كرتونية مختلفة الحجوم، يرميها في الشاحنة الصغيرة، ثم يمضي.

لا كمامة، ولا بدلة زرقاء، ولا ولا.

المعلم ينادي حسان:

– يا حسان، تعال، خذ إبريق الشاي، برد، اصنع غيره.

صديقي مهند، يعلق:

– شكرا يا معلم جميل، لا تتعب الولد، سنشرب الشاي ولو برد.

حسناء تخرج من المحل، تحمل دميتها، تقترب من المعلم جميل، ترفع وجهها نحوه، كأنها نملة تنظر إلى جبل:

– عمي، ما شبعت.

المعلم يمد يده إلى جيبه، يخرج قطعة نقدية، وينادي:

– يا حسان، تعال، اذهب واشتر لحسناء الفول المدمَّس، وخذ حسناء معك، وبعدها وصِّلْها إلى البيت، وأعط الفول لأمها.

ويلتفت نحونا ويعلق:

– أبوها بائع خضرة متجول على عربة، عنده ثلاث بنات وأربعة ذكور، تخيل، سبعة أولاد والأم والأب الكل يعيش في شقة من ثلاث غرف بحجم علب الكبريت، هنا، فوق في الطابق الرابع، كل سكان الحي هنا على مثل هذه الحال، شقة فيها ستة أولاد وشقة فيها عشرة، والأولاد طوال اليوم في الشارع.

*

ونحن نغادر محل التصليح أرى رجلا عجوزًا، بلحية بيضاء، محني الظهر، تحت شمس تموز الحارقة، وهو ينكت في إحدى الحاويات، ألمحه وهو يرفع علبة بلاستيكية، ويضعها في كيس، لعله يجمع العلب والأواني والأدوات البلاستكية.

في العودة أقود أنا السيارة، صديقي يقول لي:

– لا أعرف كيف تتحمل قيادة هذه السيارة، هذه ليست سيارة، هذه تنور، سأدبر لك بيعها، لتشتري غيرها، أنصح لك، وتصليحها متعب ومكلف.

– أنت تعرف، لولا ميراث زوجتي مِن والدها ما استطعت شراء هذه السيارة.

أمام مشفى حياة، ينزل صديقي، وأنطلق نحو البيت.

*

عند الباب تتناول زوجتي مني المنظفات والصابون والمعقم، وتقول:

– فورا إلى الحمام، ثيابك كلها، الداخلية والخارجية، إلى الغسالة.

وأسألها:

– وأين لور؟

– لا تسأل الآن عن لور، هي في غرفتها تلعب، هات الدمى، أنا سأرمي الكيس، وأعطيها الدمى.

– من غير كيس من المجمع ستحسبها قديمة، لن تفرح بها إلا إذا رأتها في علبتها وفي الكيس.

– أنا سأشرح لها، أنت أسرع الآن إلى الحمام، قبل أن تحس بدخولك، فتخرج من غرفتها.

تحت الماء البارد المنسكب فوقي كالشلال أكاد لا أريد الخروج، وأتمنى لو كان الماء ممزوجًا بالمعقم.

*

ولكن؟ كيف انغمستُ في الفول، نفسي الضعيفة سَقَطَتْ في الشاي ثم في الفول، لا، هي المجاملة، لا يمكن أن أكون شاذًّا أو مختلفًا، لا شك أنهم قدَّروا مجاملتي لهم، وسعدوا بتناولي الفول معهم، صديقي مهند تناول نصف رغيف، وأصابعه الثلاثة غاصت في الصحن، نزلت نقاط من الطحينة والحمض على قميصه الأبيض، فاستل من جيبه منديلًا ورقيًّا ومسح النقاط، وهو يقول: "الحمد لله الفول ليس فيه زيت، لن يصاب القميص ببقعة"، لا مشكلة، والكورونا، ما شاء الله، أجسادهم قوية، عضلاتهم مفتولة، عندهم مناعة، لا صابون ولا معقم، والرجل العجوز جامع علب الكولا المعدنية؟ والشاب جامع الصناديق الكرتونية؟ والعجوز جامع العلب البلاستيكية، وحسناء؟ لا أنسى حسناء، لكن يا إلهي، كم أنا جبان وأحمق، كم أنا بخيل، لماذا لم أعط حسناء واحدة من الدمى الثلاث المرمية في صندوق السيارة، وهي الدمى التي اشتريتها لابنتي لور، لماذا لم أعط البقشيش لحسان الذي صنع لنا الشاي؟ دائما تأتيني الأفكار بعد فوات الأوان، آه، وحتى الحرب العالمية الأولى لم تبدأ عام ١٩١٩، يا لغبائي، الحرب العالمية الأولى انتهت عام ١٩١٨ وكانت قد بدأت عام ١٩١٤، كيف أوقعني صديقي الأستاذ مهند في هذا الخطأ، إذا أخطأ هو فليست مشكلة، هو مدرس الجغرافيا، وترك التدريس من عشر سنين، ونسي كل شيء، لكن أنا أستاذ التاريخ، أنا الذي أمضيت خمسا وعشرين سنة أدرِّس مادة التاريخ لطلاب المرحلة الثانوية، وأحدثهم عن الحرب العالمية الأولى والثانية، الكورونا هي التي كانت تغزو أفكاري، وأنا في المجمع أفكر في الكورونا، وأنا أرى العمال وأفكر

في الكورونا، العمال عند المصلح، والمصلح، وصديقي مهند، وكلُّهم لا كمامة ولا معقم ولا صابون؟ ولكن، لا أعرف، لا شك أنهم يحملون الفيروس، في اللقمة الأخيرة مست أصابعي، وأنا أغمسها في الصحن، أصابع ذلك الغلام، وإلى جواري لصقي كان المعلم جميل، وبيده ضغط على يدي وقال وهو يلح: تفضل، تفضل أستاذ.

*

المائدة جاهزة، زوجتي على رأس المائدة، وأنا على الرأس الآخر، قبالتها، بيننا متر ونصف، وإلى يمينها، على بعد نصف متر، ابنتنا لور، الدمى أمامها على المائدة، أشتهي ضم ابنتي وتقبيلها.

– لا قُبَل، ولا عناق، أنت قادم من مجمع أمل التجاري، أعرف الزحام فيه، إذا ما لحقت بك الكورونا من المجمع، حتما لحقت بك من أجواء مشفى حياة بجواره، أمل، حياة، لا أمل ولا حياة، أسماء مصطنعة للخداع.

أقول لزوجتي:

– أحس بالتعب، اليوم أنا مرهق، سوف أنام، الساعة الآن الرابعة.

– هل كان في المجمع التجاري زحام.

أجيبها باختصار:

– نعم.

– وهل وضعت الكمامة؟

– طبعا، وعند الباب عامل رش على يدي المعقم، وعامل آخر ناولني عربة المشتريات، وهو يرش على مقبضها المعقم.

– الله يحميك، الحقيقة، المجمَّعات التجارية هي عين الكورونا.

لا أستطيع الكتمان، أضحك أحكي لها عن الحي الصناعي والسيارة وحاويات القمامة والفول والشاي، ثم أمضي إلى غرفتي، ألقي بنفسي في السرير.

*

زحام شديد، وأنا أريد الحصول على شهادتي الجامعية، الموظف يقرأ اسمي خطأ، يقرأ رقمي الجامعي ٢٥ ٢٥، لا الرقم رقمي ولا الاسم اسمي، قطار سريع وأنا في القطار، أكاد أختنق، الزحام شديد، القطار يقف، ينزل الركاب متدافعين، القطار يفرغ من كل الركاب، على رصيف المحطة ألمح دُمَى ابنتي لور، إحدى الدمى مقطوعة الرأس، أنا في القطار وحدي، القطار ينطلق، كأني أرى مفتش القطار قادمًا نحوي، أبحث عن البطاقة في جيوبي، أصيح.

أنهض والعرق يغسلني، كأني في حمام، صدري مثل صندوق حديدي مغلق، أضع تحت أنفي زجاجة العطر، أفتح غطاءها، أظن أني لم أشم أي رائحة، أسرع إلى المطبخ، أتناول حبتين من الباراسيتامول، أذوِّب في الكأس حبة فيتامين سي، أمضي إلى غرفة الجلوس، زوجتي تتابع التلفزيون، ساعة الجدار فوق التلفزيون، العقرب الصغير فوق الخامسة، العقرب الكبير يقترب من الخامسة، أقول لزوجتي:

– أين لور؟
– هي في غرفتها نائمة.
– اتركيها.
أصمت، أنهض، أهم بالعودة إلى غرفتي، أقول لها:
– اتصـلي بصـديقي مهند، قولي له ليأتِ فورًا، ليأخذني إلى المشفى، أنا مصاب بالكورونا.

أخيرا...لمن ستكون الدار

وأخيرا حدث ما لم يخطر له على بال، بعد أربعين عامًا، حدث ذلك.

قُرِعَ عليه البابُ في الصباحِ الباكر، وإذا بموظَّفٍ يناولُه ظرفًا، يطلب منه التوقيعَ على استلامه.

*

يوم أجَّره أخوه الدار كان في العشرين من العمر، وكان أخوه عدنان في الأربعين، هما الأخوان الوحيدان، تُوُفِّيَ أبوهما ولم يترك لهما شيئًا، الأكبر عدنان جدّ وعمل، كان في العشرين، يوم توفي أبوه، وكان عُمْرُ ربيع الأصغر خمس سنوات.

صبر الأب عشرين سنة، لم يُرزق بغير عدنان، وبعد عشرين سنة توفيت زوجته، أم عدنان، فتزوج، وهو في الستين، وأنجب ولدًا، هو ربيع، هكذا سماه، ولما بلغ ربيع السنة الخامسة من عمره، توفي الأب.

بعد سنة من وفاة الأب، أم ربيع تزوجت، ثم سافرت مع زوجها، وانقطعت صلتها بربيع.

كفله عدنان، ربّاه، أنفق عليه، علّمه، حتى تخرج في معهد المعلمين، وعُيِّنَ معلِّمًا.

قال له عدنان: أصبحتَ رجلًا، وعندك دَخْلٌ، ابدأ حياتك، أنا بدأت حياتي يومَ كنتُ مثلك في العشرين.

عدنان عمل في التجارة، لم يرث شـيئًا من أبيه، ولا مِن أمه، امتلك الدور والعمارات والمحلات، ولكنه ما تخلّى عن أخيه، يوم أراد ربيع الزواج أجَّره دارًا صـغيرة، في حي شـعبي، بأجرة ليست بالقليلة.

كبر الآن ربيع، يجب أن يعتمد على نفسـه، هو أخي، وأنا ما تخليت عنه، الآن أصـبح رجلًا، عليه أن يعرف: المال لا يأتي بسهولة، عليه أن يشقى ويتعب، أريده رجلًا.

وفي كل عامين يتجدد عقد الاسـتئجار، وتزيد أجرة الشقة، تبعًا للغلاء وزيادة الأسعار.

ربيع رضـي بالواقع، لم يتذمر، في الشقة الصـغيرة تزوّج، براتب معلم دبَّر حياته، تساعده زوجته المعلمة أيضًا.

هي دار صـغيرة، في زقاق ضـيِّق، ليس فيه رصـيف، لا تدخله سيارة، أرض الزقاق مفروشة بحجارة سود مفلطحة، والجدران متلاصـقة ومتقاربة، ثمة منعطفات كثيرة، أحيانًا يضـيق الزقاق فلا يكاد اثنان يستطيعان المرور به معًا.

تدخل إلى الدار عبر ممر قصير، على يمينه المرحاض، فتنفحك فورًا الروائح، ومهما دلقت المرأة من مياه البئر، فالرائحـة مسـتقرة، يليه مباشـرة المطبخ، وفي داخله حمام للاغتسـال، فيها جرن، وكرسي خشبي، ثم ينفتح الممر الضيق على فسحة مربعة، عرضـها أربعة أمتار، وكذلك طولها، يظهر لك فيها فورًا غرفتان، لكل غرفة نافذة تطل على الفسـحة، في الزاوية بئر محاطة بحلقة حجرية، وفوقها قوس حديدي، عُلِّقَتْ فيه بكرة، ويتدلى منها حبل،

في زاوية مقابلة درج يصـــعد إلى غرفتين، وفســـحة فوق المطبخ، الدرجات عالية، تبلغ العشرين، تقطع الأنفاس، وتدمر الركبتين.

أربعين عامًا في هذه الدار أمضى ربيع مع زوجته، اليوم هو في الستين، وفي هذه الدار أنجب أربعة ذكور وبنتًا واحدة.

تزوجـت البنـت، ثم ســـافرت، أكبر الأولاد تطوع في الجيش، ثم سُـرِّح وهو برتبة عقيد، الثاني تخرج في كلية الصـيدلة، الثالث اختص بالأمراض الصـدرية، الرابع لم يتابع الدراسـة، عمل دلال عقارات.

الأولاد الأربعـة امتلـك كـل منهم دارًا، بعيـدًا عن الحي الشعبي، في أحياء جديدة وراقية.

ربيع يأبى أن يغادر الدار القديمة، دار أخيه، وفي كل سنة يدفع أجرتها، وفي كل سنتين يتجدد العقد، وتزاد أجرة الدار.

سقط درابزين الدرج، فأهمله، ولم يُعِدْهُ إلى مكانه.

معظم زجاج النوافذ تحطَّم، وضـع بدلًا من المُحَطَّم أوراقًا من الورق المقوى.

أبواب الغرف تخلّعت، تحتاج إلى بضـــعة مســـامير لتثبيتها، تركها كما هي.

زوجته عدة مرات خاصـــمته، وقالت له: لا أســـتطيع الاستمرار في العيش معك في هذه الدار.

ومرت الســـنوات، حتى بلغت الأربعين ســـنة، وهو في الدار.

وها هو ذا الآن في الستين، وأخوه بلغ الثمانين.

ابنـه دلال العقارات في الحي الغربي عرض عليـه عدة مرات استئجار شقة مريحة وواسعة.

في كل مرة يقول لهم: ماذا بقي لي في العمر؟

قال هذا عدة مرات.

قاله وهو في الأربعين، وهو في الخمســـين، اليوم يقوله وهو في الستين.

أنا مســـتمتع هنا، دعوني وشـــأني، حياتي هي حياتي، حياتي هي بين هذه الجدران في هذه الدار.

يجتمع عنده الأولاد والأحفاد، تضـــيق بهم الدار، ولكنه يفرح بهم، ويجدها تتسع لهم جميعًا، ويتمنى لو يقيموا عنده.

الغرفة العلوية سقفها تشقق، يرشح منه المطر، هجرها، أصبحت مأوى لليمامات.

كل يوم يصـعد إليها في الصـباح، يضـع لليمامات فتات الخبز اليابس، ويملأ وعاء لها بالماء.

زوجته احدودب ظهرها، تارة تشفق عليه، تقول له: ليتني أصـــعد الدرج بدلا منك، تارة تلومه، تقول: هل أنت كفيل بطعام اليمامات، اتركها.

انكسـرت إحدى الدرجات، ومع ذلك يصـعد إلى الفسـحة في الأعلى، وينام فيها صيفًا.

أخي له فضـــلٌ علي، يكفي أنه أجَّرني هذه الدار، نعم، أنا كل ســـنة أدفع له أجرة الدار، وهو كل ســـنتين يزيدها في عقد جديد، هذا من حقه، هكذا هي الحياة، وهكذا هي الدنيا، وأنا راضٍ، لا أحلى من الاستقرار والطمأنينة والأمان.

كل واحد من أولاده الأربعة يمتلك شقة.

الأكبر حصل على شقة في حي حديث أُنْشِئَ للضباط، عرض عليه أن يسكن فيه، رفض، اضطر الابن إلى تأجير الشقة لصديق.

ليس بخلا. قال لهم: معي ثمن شقة، خذوا الثمن وتاجروا به.

لم يصلح في الدار أي شيء، ولم يضف إليها أي شيء، الجدران تشققت، الدهان زال نهائيًّا، كل شيء يتداعى وينهار.

أنا سعيد بهذه الحياة.

أنتم لا تعرفون مقدار سعادتي، هنا أنتم ولدتم، وهنا أنا ربيتكم، وهنا أنتم كبرتم، هنا حياتي.

مرة قال له أحد صحبه: لو كان أخوك من أمك لكان أحنَّ عليك من هذا الأخ، هو أخوك من والدك، لذلك يقسو عليك.

رد عليه بغضب: هو أخي، شاء أم أبى، وأنا أخوه، شئت أم أبيت، والرجل لا يقصِّر، يزورني وأزوره، وما من مشكلة بيننا، والدار رزقه، وليبارك الله له فيها، وإذا أراد أخليها له فورًا، أبحث عن دار أخرى، ومن حقه أخذ أجرتها مني.

أحيانا، أستاء من أخي، وأحس بالقهر والانزعاج، وأقول في نفسي: لو أنه يتنازل لي عن الأجرة، أو يتركها كما هي ولا يزيدها، لكن، سرعان ما أنسى، أسامحه، أقول: سأدفع له الأجرة، ولو زادها خمسة أضعاف.

هو أخي، ولن أزعجه. هذه قناعاتي.

نعم أنا جزءٍ من هذه الدار العتيقة، قولوا عني ما شـئتم: متخلِّف، عقلية قديمة، لكن أنتم لا تعرفون مبلغ سـروري، وراحتي، ورضاي.

ربيع أخي، وأنـا أحبـه، ولا أتخلى عنـه، لكن هـذا هو مبدئي، أريده رجلًا، أريده يعتمد على نفسـه، الحياة صـعبة، عندي شـقق متوسـطة في أحياء عادية، وشـقق فاخرة، في أحياء راقية، لكنه لا يسـتطيع دفع أجرة أي شـقة، لا فاخرة ولا عادية، هذه هي حياته، وهذا هو مسـتواه، الناس طبقات. أولادي، حتى أولادي لا أريد لهم الطمع بي، أريد لهم الاعتماد على أنفسـهم، حتى ابني مهند، اقترض من المصرف، واشترى سيارة، لم يطلب قرضًا مني، كبر في عيني، سـرَّني اعتماده على نفسـه، وأنا لم أعرض عليه، ولن أعرض عليه، حتى لا يتكاسل.

هذا ما يقوله عدنان بينه وبين نفسه، هذا ما يقوله للناس إذا يومًا ما عاتبه أحد.

مرة واحدة فقط قالت له زوجته: أجِّرْه شـقة أوسـع من شقته.

أجـابهـا: هو أخي، لن تكوني أعرف بـه مني، ولا أحنَّ مني عليه.

وما عادت إلى الكلام في الموضوع.

*

اليوم قُرِع البـاب، ففوجئ بموظف يناولـه ظرفًا مختومًا، ويطلب منه أن يوقع على استلامه.

هو من أخيه عدنان، فتحه، فإذا فيه صـكٌّ تنازُلٍ له عن الدار.

نظر في الموظف، لم يوقع، قال له:

–أعده إلى مصـدره، لن أسـتلمه، سـوف أسـتمر في دفع أجرة الدار.

الخروج من البيت

أخيرًا، أخذتُ قراري، ولن أتراجعَ عنه.

حملتْ حقيبة الثياب، ولم تنسَ حقيبة اليد الصغيرة، ففيها المجوهرات وأوراقها الخاصة وأموالها، علقتها بكتفها، أغلقت الباب وراءها، ولم تقفله، ونزلت بالمصعد، وضعت حقيبة الثياب في صندوق السيارة، وانطلقت بها.

سأحرق قلبه، سيظن أني في البيت، يفتح ويدخل، يدور في الغرف كلها، لن يجدني، تركت له أكثر الثياب، لن أرجع، تركتها له ليتذكرني ويتألم أكثر، أخذتُ الثياب التي يحبها هو، سأشتري ثيابًا جديدة، لا يهمني.

انعطفت بسيارتها نحو صديقتها أم خالد.

لن أذهب إلى شقتي، عندي شقة والحمد لله، سجَّل هو نصف الفيلّا باسمي، لست بحاجة إلى نصف الفيلّا، ولا إلى الفيلا كلّها، شقتي موجودة، وإن كانت ابنتي سمر تسكنها، ستفرح بي، وأولادها سيطير عقلهم، أشرب القهوة أولًا، ثم أبشرها بخلاصي منه، ستفرح هي الأخرى، سيطير عقلها، طالما قالت لي: "هذا الرجل أناني، يريد امتلاكك، أنتِ لست جارية عنده ولا خدامة"، صدقت، نعم، لست جارية ولا خدامة.

ربما كان كلامها نابعًا من استياء كامن تخفيه في أعماقها، لأني تزوجتُ هذا الرجل بعد وفاة أبيها، نعيم، يرحمه الله، لكن كلامها صحيح، فهمي بك أناني، تاجر، يريد امتلاكي.

*

تأبطت حقيبة اليد، صعدت الطوابق الثلاث على الدرج، إلى شـــقة صـــديقتها أم خالد. توقفت أمام الباب قليلا، التقطت أنفاســها، ودَّت لو كان عند الباب مرآة لتســوّي شــعرَها، لكنها لم تتردد، أخرجت أحمر الشفاه من حقيبة يدها، ووضعت طبقة أخرى جديدة منه على شفتيها.

– أهلا، أهلا حبيبتي أم وفاء.

ضمتها إلى صدرها، تلامست الخدود، تناثرت القبل في الهواء. وفي مقعد عريض قعدتا متجاورتين.

– باركي لي، هنئيني.

– ماذا؟ حامل؟

لكزتها في كتفها، ونظرت إليها نظرة حادة، وهي تقول:

– أم خالد؟ لا تمزحي، أنا في الخمسين، كيف سأحمل؟

وتتكلم أم خالد مدهوشة:

– وضّحي لي، حتى أشاركك في فرحك.

– تخلصتُ منه.

– جارك طالب الجامعة الساكن مقابل شقتك؟ والمزعج بصوت المسجلة والسهرات مع أصحابه كل ليلة، هل غادر الشقة؟ أو اعتقلته الشرطة؟

– أوف، أم خالد، أنت سيدة الذوق والفهم، تخلَّصت من زوجي فهمي بك.

– مات؟

– لا، لكن ســـيموت من دوني، غدًا تُعَلَّق أوراق نعيه، طلقته، باركي لي، هنئيني.

أم خالد تنظر إلى أم وفاء مدهوشـــة، وهي تفتح حقيبة يدها، تبحث فيها عن شيء، ثم تلتفت إليها:

– أم خالد، هاتي لي ســـيجارة من عندك، أعرف أنت عفاك الله من التدخين، لكن لا بد، عندك علبة ســـجائر في غرفة الضيوف.

أم خالد تتجه إلى غرفة الضيوف، وأم وفاء تناديها:

– ولا تنسَي القدَاحة، اشتقت للسيجارة، حرمني منها، الله يحرمه نور عينيه.

أم خالد تناولها علبة السجائر والقداحة، وهي تقول لها:

– لكن حرام، يا أم وفاء، فهمي بك تعلَّق بك، عشقك.

– يعشــقه عزرائيل، وتتعلق إن شــاء الله مشــنقته، هذا جنون، مرض، كأنه اشــتراني، تاجر، حســبني جارية ملك يمينه، ليتني بقيت أرملة طوال العمر، وما تزوجته، خســارة، زوجي نعيم، الله يرحمه، لا يعوض، كل سنة كنا نسافر مرتين أو ثلاث مرات.

تشعل سيجارتها، تنفث الدخان، تتكلَّم، وهي تضحك:

– لا تلوميني، يا أم خالد، ولا تعتبي علي، أنتِ أول مَن نبَّهني، أنتِ قلت لي مرة، هل نســيتِ، أنت قلت لي: أرادك جارية خدامة، أراد امتلاكك.

أم خالد ترتبك، تتكلم وهي تتلعثم:

– ربما قلت مثل هذا الكلام، بناء على كلامك أنت عنه، وعلى كل حال، أنا ما قلت لك اخربي بيتك وطلقيه، أنا...

تقاطعها، وهي تطفئ السـيجارة في المنفضـة، تطفئها وتفتتها بقسوة:

– سيجارة ناشفة من سنة، مثل فهمي بك، والله لأحرقه وأعفسه مثل هذه السيجارة، قومي أم خالد واتصلي بسوبر ماركت شريف، اطلبي لي علبة سجائر كِنْت بيضاء، جديدة، نظامية، مستوردة، لا مهرَّبة.

أم خالد تهمّ بالنهوض، لكن أم وفاء تقول لها:

– لا تتصلي، لا أريد، هيا، سنذهب إلى مطعم الحياة نتناول الغداء، هيا بسرعة، مشتهية أمارس حريتي.

وفي السيارة تقول لها بصوت حاد ومرتفع:

– أم خالد، أنتِ قلتِ عني خربت بيتي، الله يسامحك، أنا خربت بيته هو، لا بيتي أنا، الحمد لله، أنا بيتي عامر، أنا عندي شقة، فيها سبع غرف، تسكنها ابنتي، مع ولديها التوأمين، وابنتها، وهذه سيارتي، وعندي راتبي التقاعدي، وعندي دكان أجرتها الشهرية وحدها تكفي عيش عائلة من عشرة أولاد مع أمهم وأبيهم، أنا لست بحاجة إليه.

يرن الهاتف الجوال، تلتفت إلى أم خالد، وهي تقود السيارة، تقول لها:

– حبيبتي، الله يرضى عليك، افتحي الحقيبة، وردِّي على الهاتف.

– ربما هو؟

– لا، اطمئني، ليس هو، ردي.

تضحك تتكلم:

– فهمي بك، ســـوف يُجَنّ، تركت هاتفي الجوال في المطبخ، ســـيقول: نســـيتْه، وســـوف ترجع، لن يفهم، هو جواله، أهداني إياه ليلة زواجنا، ليتها ما كانت من ليلة، تركتُه له، لا أريده لا هو ولا جواله، معي هذا جوالي القديم، فيه شـــريحة قديمة، خاصة بصديقاتي، سأجعله يجن، غبي، هل يشتريني إذا أهداني الهاتف الجوال؟ أظن هذه حبيبة قلبك هدى، إذا هي ادعيها، قولي لها نحن في مطعم الحياة.

أم خالد ترد، هي هدى، تدعوها فتعتذر، تتناول الهاتف أم وفاء، تصيح بها، وهي تقود السيارة:

– هدى، تعالي، سنلتقي في مطعم الحياة، لا تتأخري.

هدى تعتذر، أم وفاء تغلق الهاتف، ترميه أمامها، خلف المقود، تعلّق:

– اعتذري، أولا تعتذري، لا يهمّني، أنا زوجي، فهمي بك، التاجر الكبير، ما ســألت عنه، مللتُ، بعض الناس لا تعرف كيف تعيش ساعة السرور، الله معها.

تربت على فخذ أم خالد، تميل عليها، وهي تقود السيارة، وتضيف:

– تكفيني أم خالد، أحلى صديقة.

*

ترقى الدرج إلى المطعم، تطلب من النادل ركْنَ الســـيارة في مكان مناســـب، تتّخذ لنفســـها موضـــعًا أمام نافذة واســـعة تطل على المدينة، تنادي النادل، وســـرعان ما تمتلئ المائدة بالصـــحون والأطباق الصغيرة والكبيرة الحافلة بشتى الأصناف.

أم خالد تعلّق:

– هذا يكفي عشرة أشخاص.

– من زمان ما صـرفت النقود، أشـتهي صـرف المال، أشتهي تحقيق ذاتي.

تغرز الشـوكة في قطعة اللحم، تقطعها بالسـكين، وهي تتكلم:

– سأقطعه هكذا، بالشوكة والسكين.

– لكن يا أم وفاء...

تقاطعها:

– أرجوك، لا تناديني أم وفاء، ناديني نجلاء، ما عدت أحب أن أكون زوجة ولا أم وفاء ولا أم سمر ولا أم علي.

– حاضـر، يا نجلاء، طوال ثلاث سـنوات، كان كلامك عليه، عن جوده وكرمه، وعن حبه لك، وعن تعلُّقه بك، ماذا جرى هكذا فجأة؟ كنتِ أنت وهو أسعد زوجين، أكثر من الشباب.

أم وفاء تبتلع لقيماتها بتلذذ، وانتشاء، ترسل نظراتها عبر زجاج النافذة إلى السماء، وتتكلم:

– أنا الآن طير أحلِّق في السماء، أرادني مثل عصـفور في قفص، أو مثل قطة في المطبخ، لا تنزل من حضنه.

أم خالد تضحك، تعلّق:

– مثل قطة في حضنه، هذا شيء حلو.

أم وفاء ترسل زفرة، تتكلم:

– ما عرفت كيف أعبِّر، أقصـــد محبوســـة، في الليل والنهار معه، لا يسمح لي بالخروج، لا يريد لي تركه لحظة واحدة،

مثل طفل صـــغير متعلّق بأمه، أنا مللت، عندي إخوة وأخوات وبنات وأولاد أشتاق إليهم، عندي صديقات، عندي أنت أم خالد.

أم خالد تتكلم:

– حبيبتي نجلاء، أنت قلت لي عنه: يحبّ الضـــيوف، وفي كل أســـبوع يقيم دعوة لأهلك، قلت لي بيتكم لا يخلو من الضيوف، بل يطلب منك دعوة قريباتك وصديقاتك، وأنا، أنا أكثر من مرة دعوتني، وكان يرحب بي، ويسعد بزياراتي الكثيرة لك، في كل زيارة يرحب بي أكثر، وفي كل أسبوع تزوريني مرتين أو ثلاث مرات.

أم وفاء تنظر إليها، وهي تقطّب جبينها:

– أم خالد، تعدّين عليَّ زياراتي لك؟

أم خالد تتلعثم، تتكلم:

– لا، والله، ليس قصدي، أردت...

أم وفاء، تلتفت عنها، تنادي النادل:

– خذ مفتاح السيارة، نسيت الهاتف الجوال وراء المقود، انزل وأحضـره فورًا، واشـتر لي علبة سـجائر كِنْت مسـتوردة، لا تهريب، بسرعة، مع قداحة.

تلتفت إلى أم خالد، ثم تقول:

– بصـراحة، مللت منه، طول النهار والليل قاعد معي، في وجهي، يلحق بي إلى المطبخ، إلى الشرفة، قال يضجر وحدَه، يريدني دائما معه، أمامه.

أم خالد، ترسـل زفرة، تهم بالكلام لكنها تسـكت، تضـع الملعقة من يدها، أم وفاء تلكزها في كتفها، تقول لها:

– زعلتِ مني، مللتِ من حديثي؟
– لا، حديثك ممتع، الله يسعدك.
– بماذا؟
– عندك على الأقل رجل يتعلّق بك، وأنتِ مللتِ منه، ماذا أقول أنا؟

تدفع بيدها كتف أم خالد، تضحك، تقول لها:

– خذيه، فهمي بك، أتنازل لك عنه، الله يبارك لك فيه.

النادل يحضر لها هاتفها الجوال، وعلبة سجائر كنت، تفض العلبة، تستل منها سيجارة، النادل يقدح النار، يشعل سيكارتها.

أم وفاء تميل على أم خالد، تهمس لها:

– احمدي ربك، وحدك، أنت حرة، مثل طير في السماء.
– والله، الوحدة صعبة.

أم وفاء تتناول لقيمات، تشعل سيجارتها الثانية، النادل يحضر دلة قهوة مرة، وفنجانين، يصب لهما، القهوة، ثم يترك الدلة على المنضدة.

أم خالد تتكلم بصوت عال:

– يا أم خالد، ساعديني في البحث عن محامٍ شاطر، أريد تخليص كل حقوقي منه، أريد نتْفَ ريشه، تذكرت، مرة حكيتِ أنت لي عن ابن أختك، وقلت عنه هو محامٍ شاطر.
– نعم، سأتصل به، لكن لا تستعجلي.

*

تفاجأ بها ابنتها سمر، لكنها ترحب بها، وبسرعة، تهيّئ لها غرفتها الخاصـــة، يفرح بها الأحفاد، ســـامر وعامر ووداد، يتهافتون على الألعاب والحلويات التي اشترتها لهم.

تسألها ابنتها:

– هل أهيئ لك الغداء.

– لا، الآن نهضت عن المائدة.

ثم تسأل بلهجة مختلفة:

– متى يرجع زوجك مهند من العيادة؟

– حوالي الخامسة والنصف.

ثم تضيف:

– عندنا دعوة من صديق لمهند، لن يصعد إلى البيت، سيرن لي فور وصوله، وأنزل، لنذهب فورًا.

– والأولاد؟

– جئت في وقتك، سيبقون في البيت، في كل مرة أتركهم عند الجيران، لكن، سأتركهم عندك.

تعلّق:

– نعم، حظي جيد، جئت في الوقت المناسب، سأبقى عندهم.

– وهل سيمر بك فهمي بك؟ نحن سنتأخر، ربما لن نرجع حتى العاشرة، أو الحادية عشرة.

تصمت، تتردد، تتكلم، وهي تتلعثم:

– لا، لن يمر بي، قد أبقى عندك، وقد يمر، لا أعرف، وربما أرجع إلى البيت وحدي، لا أعرف.

البنت تصمت، تفكّر قليلًا، ثم تقول:

– لكن لا تغادري، حتى نرجع، لا تتركي الأولاد وحدهم. تحتسيان معا القهوة.

ابنتها تتركها في غرفة الجلوس، تمضـــي إلى غرفتها، تهيئ نفسها للخروج.

*

تمضـــي أم وفاء إلى غرفتها، تغلق الباب على نفســها، وتلقي نفسها في سريرها، تشعل سيجارة.

لا أعرف كيف يمر الوقت، أحيانا يمرّ ســـريعًا، أحيانا أجده بطيئا مملًّا.

في هاتفها الجوال تأتيها إشارة تدل على وصول رسالة، بل رسائل، تفتح الواتس أب، تقرأ:

– ســـيدتي، أنا الأخيضـــر، أنا النادل الذي خدمك في المطعم، ســـامحيني، أنا لا أتطفل عليك، لكني أريد مســـاعدتك، ســمعت من خلال حديثك مع زميلتك أنك تبحثين عن محام ناجح ليخلصـك من زوجك، أنا في خدمتك، أنا متخرج في كلية الحقوق، لا تدهشـي، وأحضـر رسـالة الماجسـتير في القانون الدولي، قانون البحار، اختصـــاص نادر، هذا المطعم الذي أخدم فيه أنا أملك نصـــفه، ولكني أعمل كي أتعرف على الناس وأكتســب خبرة، وأنا أتدرب عند أشـــهر محام في هذه المدينة، اســـألي عنه، المحامي زكريا الأحمدي، وعندي مدرسة للتدريب على قيادة السيارات، أملك نصفها، عندي أربع سيارات للتدريب، أملك نصفها، أملك سيارتين.

هذا المشــؤوم، بكتفه المائل، وبدلته الخضــراء، حقا هو الأخيضر، ونظارته الطبية السميكة، تجعل عينيه صغيرتين، مثل جرذ.

وتصل رسالة ثانية:

– سامحيني، لم أسرق رقمك، ولم أتلصص عليك، أنتِ طلبتِ مني إحضــار هاتفك الجوال من الســيارة، فأحضــرته لك، وبدافع الفضول، عرفت رقمك، وبدافع الحب أكتب إليك.

ترمي الجهاز، وتنهض من الســرير، جســمها يرتعش، تطفئ ســيجارتها، هذا الأجرب يغازلني، وهو في عمر ابنتي، وأنا كرهت الرجال.

وتسمع إشعارًا بوصول رسالة جديدة، تفتح الواتس، تهم بحذف الرسالة، ولكنها تقرأ:

– سيدتي، أنت أم حنون، صدرك يتدفَّق خصبًا وعطاء، أحتاج إلى امرأة في عمرك تحضــنني، أنا فقدْتُ أمي في طفولتي، ولا أعرف حنانَ الأم ودفئها، أحتاج إليك، رأيتك، فأحسست بحاجة إليك، وأحسست كأنك غيمة تهطل على عطشي، أريدك لي أنا.

تغلق الواتس، تمحو الرسائل كلها، تغلق الهاتف الجوال، تخرج من غرفتها، ســـامر وعامر يحيطان بعنقها، توأمان في الخامسة، وداد، وهي في العاشرة، تنبّههما، وتبعدهما عن الجدة.

ســـمر تخرج من غرفتها، وهي في كامل زينتها، تقبّل الولدين، وتقول لهما:

– لن أتأخر، كونوا هادئين، بابا وصـــل، هو تحت في انتظاري، سأحضر لكم هدايا.

ويعدوان نحو الشـــرفة، تلحق بهما الجدة، تتبعهما وداد، يطلّان من الشـرفة، يلوّحان بالأيدي لوالدهما، وداد والجدة تحاولان منْعَهما من تســـلق الدرابزين، يبكيان، الجدّة تعود بهما إلى غرفة الجلوس، تمضـــي إلى المطبخ تفتح الثلاجـة، تبحث عن طعام تسـلّي به نفسـها، وتسـكت به بكاء الأولاد، تحضـر قالب كاتو، وتطلب من حفيدتها وداد إحضـار شـموع صـغيرة، تشـغل الأولاد وتلاعبهم، وتغني لهم أغنية عيد الميلاد.

تمضـي إلى المطبخ، لتعد فنجان قهوة، يدفعها الفضـول، تفتح الهاتف الجوال، تفتح الشبكة، تجد رسائل كثيرة وصـورَ ورودٍ وزهرات وصور قلوب تخترقها أسهم، تحذفها فورًا.

وتنزل رسالة جديدة، يدفعها الفضول، فتقرأ:

– جهـاز هـاتفـك الأجرب قـديم، ارميـه في البحر، أنـا عندي محل لبيع الهواتف الجوالة، بصـــراحة ليس كله ملكي، أنا شـريك فيه بالنصـف، في أول لقاء لنا سـأهديك أحدث جهاز، فيه ثلاث كاميرات، وهو متطور.

تضحك، تحذف الرسالة، تغلق الهاتف.

لن أرمي هاتفي في البحر، ســأرميه هو ورســائلك في القمامة.

تحمل فنجـان قهوتهـا، وتمضـــي إلى غرفـة الجلوس، تحتسي قهوتها، تحس بالاشمئزاز.

فمه وهو يتكلم، ينحرف إلى اليمين، ويميل بجانبه أكثر، حقيقة، عندما وضـــع القهوة أمامي، مال عليّ، أحســت بأنفاســه تلامس شعري، أغرقني في رائحة غريبة، لم أعرف حقيقتها، ليست

عطرًا ولا عرقًا، كأنه لم يستحم من سنة. متخرج في الحقوق ويعمل نادلًا، ويحضر رسالة الماجستير، ويتدرَّب عند زكريا الأحمدي، حقيقة الأحمدي هو أشهر محامٍ في المدينة، ويملك هذا الأخيضر كما يسمي نفسه نصف المطعم، ويعمل فيه، ويملك نصف مدرسة للتدريب على القيادة، ويملك نصف أربع سيارات، ويملك نصف محل لبيع أجهزة الهواتف الجوالة، وسيهديني جهاز هاتف، أخشى أن يهديني نصف هاتف جوال، هل هذا معقول؟ نصف رجل.

وتنزل في الواتس رسالة جديدة:

– تعقبتُ هاتفك، وعرفتُ أين أنت، عندي في هاتفي آلية تعقب أرقام الهواتف، عرفتُ أنك هنا، رأيت سيارتك، وأنا الآن أمام باب العمارة، من ساعة وأنا أنتظر خروجك، رأيتُك في الشرفة تودّعين ابنتك، الأمر واضح، عرفتها، هي ابنتك، تشبهك كثيرًا، فقط، أرجوك، أطلي عليَّ من الشرفة، أعشق حضورك، متّعيني بنظرة واحدة، أنتِ أمّ، حنون، وصدرك....

تحذف الرسالة، تتجه إلى باب الشرفة تغلقه، تذهب إلى غرفتها، تنظر من وراء ستارة مسدلة على النافذة، هو على الرصيف المقابل، يقف، عيناه معلقتان على الشرفة.

تضحك، تسخر منه، تسخر من نفسها.

ماذا أفعل؟ مجنون يحاصرني، كيف سأخرج؟ تحس بالضيق. تستل سيجارة من حقيبة يدها، تشعلها، تنفث الدخان، يرن جرس الباب. تطفئ السيجارة، وتسرع إلى غرفة الجلوس، تهمس للأولاد.

– لا تتكلموا، ولا تتحركوا، لن نفتح الباب.

سامر وعامر يرتعشان خوفًا، يسألان:

– لص، حرامي؟

تضمّهما إليها، وتقول:

– لا، ضـــيوف، لا يمكن اســـتقبالهم في غياب أمكم، انتظروا.

وتسـرع إلى الباب. لا شـك هو، صـعد إلى الشـقة، ماذا يريد؟

تلتفت إلى وداد، تقول لها:

– خذي ســـامر وعامر إلى الداخل، لا أريد ســـماع أي صوت، لن نفتح الباب.

عامر يصيح:

– أريد ماما.

هو ليس غيره، ببدلته الخضـراء، وكتفه المائل، ماذا يريد مني؟ مجنون.

تسرع إلى هاتف مركون في الزاوية. وداد تسأل:

– الشرطة؟

ويأتي صوت من وراء الباب:

– أم وفـاء، افتحي، أنـا فهمي، أعرف أنـتِ هنـا، عنـد بنتك، سيارتك أمام باب العمارة، افتحي.

وتنظر من العين السحرية:

يـا إلهي، فهمي بـك، مـا الـذي جـاء بـه؟ لن أفتح لـه، ليرجع.

وداد تتكلم:

– هذا جدي فهمي، أحبُّه، عرفْتُه مِنْ صوتِه، سأفتح له.

تسرع إلى مرآة وراء الباب، تسرّح شعرها، تسوّي قميصَها، تمسَح عينيها.

يسرع سامر وعامر إلى فهمي بك، يأخذهما بين يديه، فهمي بك يدخل بعفوية ومرح، يتكلم:

– توقعت أنك هنا، تمنيتُ لو تركتِ لي ورقة ...على كل حال: المحبُّ قلبه دليله، تفضَّلي، هذا صندوق حلوى لك، لابنتك، للأولاد، أحب شقة ابنتك، أحب شقتك، وأحب الشرفة الصغيرة، تعالي نقعد فيها، أين سمر ابنتك، أين الدكتور مهند، زوجها؟

– لا، سنقعد هنا في غرفة الجلوس، الجو بارد.

– على العكس، نحن في نيسان، والجو دافئ.

الشرفة، الشرفة، كرهت الشرفة، سنقعد فيها، ونطل على الأخيضر، وسوف يرانا، ليكن، لا بأس، لعله يرى زوجي، فينصرف.

يبادرها بالسؤال:

– لماذا تأخرتِ في فتح الباب؟ ما أحس قلبك أني وراء الباب؟

تعلّق ساخرة:

– عرفت أنك وراء الباب، وكنت أنوي ألا أفتح لك، وداد هي التي اضطرتني إلى فتح الباب، كنتُ أريدك ترجع إلى الفيلا، إلى الفيلا الخاصة بك أنت.

– ما هذا المزاح، أم وفاء، أنت سيدة الفيلا، وهي لك، هل أنت مزعوجة من شيء؟ هل أخطأتُ أنا معك في شيء؟

– لا، لم تخطئ، ولكن ثلاث سنوات، وأنا حبيسة هذه الفيلا، السجن، لا سهرة خارج البيت، ولا عشاء في مطعم، ولا سفر، أنا معتادة على السفر، في كل سنة أسافر مرتين أو ثلاث مرات، الطعام من تحت يدك أطيب من طعام المطاعم، هكذا تقول لي، تقنعني، أردتني طباخة خدامة، لا نزهة، ولا زيارة، ماذا أقول: حتى السيجارة حرمتني منها، أنت لا تحب التدخين، ماذا أفعل؟

*

في الشرفة يقعدان متقابلين، يضع سامر وعامر في حضنه، يطعمهما بيده قطع الحلوى.

– أحلم أن يرزقني الله منك توأمين مثل سامر وعامر.

تضحك ضحكة ساخرة، تعلّق:

– هذا حلم إبليس بالجنة.

– كل شيء ممكن، أنت ما زلت في الخمسين، والحَمْلُ ما هو بالمستحيل، وأنا الحمد لله في السبعين، لكن أقوى من شباب هذا الجيل.

– صدقت، أنت أقوى منهم كلهم، أقوى حتى من هذا الأجرب، نصف الرجل، ونصف المدرسة، ونصف السيارات، ونصف الدنيا.

– لكن صرت أشمئز من تفكيرك، ومن هذا الجيل.

ينظر إلى الشارع، يعلق:

– مَن صاحب هذه السيارة الخضراء؟ من سيارات التدريب على القيادة، لا حظي، صفَّ سيارته وراء سيارتك، وألصقها بها، لا أعرف كيف ستخرجين، كأنه يتعمد إغلاق الطريق عليك، انظري، أظنه هذا الشاب الواقف بجانب السيارة، وهو يسند ظهره إليها، سأنزل لأطلب منه إبعاد سيارته عن سيارتك، كأنه يريد إثبات شطارته، يبدو هو المدرِّب على القيادة.

تنظر، ترى الأخيضر، ببدلته الخضراء، يرفع رأسه إلى أعلى ينظر إليهما.

– اتركه، لا شك سيمشي بسيارته في الصباح.

ينظر إليها مدهوشًا:

– لن تغادري بعد قليل، ستنامين هنا؟

– نعم.

– وأنا؟

– تنام في سريرك في غرفتك وحدك في الفيلّا.

*

تستأذنه، تنهض، تمضي إلى المطبخ، لتصنع القهوة.

تفتح هاتفها الجوال، تفتح الواتس، رسائل كثيرة، تقرأ آخر رسالة:

– عرفت، هنا بيت ابنتك، انتهزتِ أنت فرصة ذهابها مع زوجها، فاستقبلتِ عشيقك، هذا السبعيني الشايب، لن تهربي مني ولو صعدت إلى سابع سماء، أنا قدَرُك، وأنت قدَري، لن أتركك، أنت لي.

تحذف الرسائل، تصل رسالة جديدة:

– لا تظني أني طامع في أموالك، أنا رأيت الذهب والدولارات في حقيبتك، لمّا أنت فتحتِها، أنا عندي نصف المطعم، ونصف مدرسة التدريب، ونصف محل بيع الهواتف، أنا طامع فيك أنت، أنت وحدك.

تحذف الرسال، ترجع إلى الشرفة، تحمل فنجانًا واحدًا.

فهمي بك يعلق:

– أحسنتِ، هو فنجان واحد، هو لي ولك، هو لنا معًا، يسلم ذوقك، وإذا شئت دخِّني معه سيجارة، فور دخولي البيت شممت رائحة سيجارة، دخني، خذي حريتك؟

تضحك، ترد بسخرية:

– كيف سآخذ حريتي بحضورك، لا يمكن، الفنجان هو لك، لن أشرب القهوة، اشربْه واطمئن، أنا شربت حتى الآن ثلاثة فناجين، اشربه، ما وضعت لك فيه السم.

– سأشربه، سمُّك عسل، وطوال عمري ما فكرت مثل هذا التفكير.

– عمرنا كله ثلاث سنوات، أنت ما عرفتني.

ويطول بينهما الحوار. يتودد إليها، وهي مصرة على بقائها في شقتها، عند ابنتها.

*

مللت، زهقت روحي، أنت خنقتني، هذا حب في التملك والسيطرة، هذا ليس حبًّا، تريدني لك، تريد امتلاكي والسيطرة عليَّ، هذا جنون السبعين، كأنك طفل يتعلق بأمه، لن أرجع معك. وهذا الشاب الأبله المشؤوم يتعلق بي، ما هذا؟ الشباب والشيوخ، كلُّهم

يتعلقون بالمرأة المكتملة الناضـــجة، هل هو مرض العصـــر، هل هي عُقْدُة فقْدِ الأمّ، فقْدِ الحنـان في الطفولـة؟ كنت أدرِّسُ طلابي موضـوع العقد النفسية، حدثتُهم عن عقدة الرجل يتعلق بامرأة تشبه أمّه، ما كنت أصدق، الآن أجد نفسي ميدان تطبيق لهذه العقدة.

*

وتدخل سمر وزوجها، يرحب الزوج مهند بفهمي بك أشد الترحيب.

– أنا آسف، كان عندنا سهرة عند صديق، أهلًا وسهلًا.

وبعد أن يشـرب الجميع القهوة، يتكلم فهمي بك ببسـاطة وعفوية:

– شـكرا لهذه السـهرة الجميلة، حان موعد نومنا جميعًا، السـاعة تقترب من الحادية عشـرة، غدًا عندك عمل دكتور مهند، أرجو أن تسمحوا لنا، إلا إذا أردتم أن ننام عندكم الليلة.

ويلتفت إلى زوجته، يقول لها:

– تفضـــلي أم وفاء، النوم يداعب عينيك، أخشـــى عليك النعاس، وأنا لا أعرف قيادة الســـيارة، لو كنت أعرف، لكنت قدت السيارة بدلًا منك.

يا إلهي، يثرثر، ويتكلم ببســـاطة، وكأنه لم ينزعج من كلامي، كأنه لم يفهم أني مستاءة، كارهة، حاقدة، ناقمة، لن أذهب سأنام هنا.

مهند يتكلم:

– أهلًا وسـهلًا بكم، أنا وسـمر سـننتازل لكم عن غرفتنا تنامون في غرفتنا.

سمر تتكلم ممازحة:

– لا أنا وأمي ننام في غرفتنا، وأنت وعمي فهمي بك تنامان هنا في غرفة الجلوس.

فهمي بك يتكلم بجد:

– لا، شكرًا، أنا لا أستغني عن أم وفاء، أنتم لكم شقتكم وسريركم.

يلتفت إلى أم وفاء، وهو يقول لها:

– هيا، حبيبتي.

*

لدى خروجهما من باب العمارة لا تجد السيارة الخضراء، ولا الأخيضر.

تطمئن، ترتاح، تقود بهدوء.

لكن، تنتبه إلى أن سيارته مركونة في شارع فرعي، تقود بسرعة.

أمام باب الفيلا، توقف سيارتها، لا تطفئ المحرك، تقول له، وهي تنظر إلى أمام، من غير أن تلتفت إليه:

– أرجوك، حبيبي، فهمي بك، تفضَّلْ، انزل إلى الفيلا، أنا نعستُ، وعليَّ الوصول إلى صديقتي أم خالد، قبل ما أنام وأنا أقود السيارة؟

فهمي بك يحاول وضع يده حول عنقها، يحاول تقبيلها، فتمنعه، يتكلم:

– سأذهب معك، أنام مثلك عند صديقتك.

– صديقتي عزباء، لا تستقبل رجالًا في بيتها.

– أنا معك، ولستُ وحدي.
– للأسف، غير ممكن.
– سأذهب معك، أعدِكُ، أنزل أمام شقتها، وأرجع وحدي، لأطمئن عليك.
– لا تقلق، لن أنام وأنا أقود السيارة.
– منذ قليل قلت أخاف من النوم وراء المقود، على كل حال، إذا أردت فسوف نذهب معًا إلى فندق وننام.
– الفنادق لا تستقبل نزلاء من أبناء المدينة، الفنادق لا تستقبل إلا الغرباء.
– سنقول لهم إننا عروسان وهذه ليلة الزفاف.
تضحك، وتعلق:
– وأين البدلة السوداء، والثوب الأبيض، وباقة الزهر.
– انسي الفندق والنوم، سنذهب إلى مطعم ونسهر حتى الفجر؟
– والمناسبة؟
– شاركيني فرحتي، نجحت في انتخابات غرفة التجارة، حصلت على أعلى الأصوات، رئيس غرفة التجارة.
تعلّق، من غير أن تلتفت إليه، وهي ماتزال تنظر إلى أمام، وتضغط برجلها على دواسة البنزين، فيدور محرك السيارة:
– فرحتك هي فرحتك أنت، ونجاحك هو نجاحك أنت، أنا لا علاقة لي.
– سامحك الله، يا أم وفاء، فرحتي لا تكتمل إلا بك.
– ليسامحنا الله جميعا، ولكن أنا لم أخطئ.

*

يعلو صـوت سـحج عجلات، تقف إلى جوارهما سـيارة كانت مندفعة، الأخيضر يمد رأسه من النافذة، يصيح:

– مبارك لك بهذا الشـيخ الشـايب، عجوز سـبعيني، اعشقيه، واتركي الشاب ابن الثلاثين، مجنونة ومجنون.

فهمي يفتح باب السيارة، ويلقي بنفسه خارج السيارة، يريد ضرب الأخيضر، لكن الأخيضر ينطلق بسيارته.

يعود إلى مقعده بجوارها، وصـدره يعلو ويهبط، ويده ترتعش، يميل عليها، يهمس لها، وهو يلهث:

– هل سمعتِ ماذا قال؟ حقيقة هو صادق، نحن عشاق: مجنون ومجنونة.

*

تفتح حقيبتها بعصـبية، تسـتل هاتفها الجوال، تهمّ بالاتصال، يمسك يدَها، يحاول خطْفَ الهاتف، لكنها تغلق قبضتها عليه، يسألها:

– مع من سيكون الاتصال بهذا الوقت المتأخر؟

– طبعا، لن يكون الاتصال بك.

– أعرف، لكن بمن؟

– بصـديقتي أم خالد، سـأخبرها أني قادمة إليها لأنام عندها.

– ما زلت محتفظة بهاتفك الجوال القديم؟

– نعم، للطوارئ.

– لا طوارئ، ما دمنا معًا.

– لسنا معا، لن نكون معًا.

يتكلم بهدوء:

– تتركين في البيت هاتفي الذي أهديتك إياه في ليلة زواجنا، وتحملين هذا الهاتف القديم.

– نعم، أترك لك هاتفك، كما قلت، وأحمل هاتفي القديم، هاتفي هذا الأجرب، مثلما قال لي أحدهم، هو أحب إلى نفسي.

يضيف بلطف، وهو يمد يده نحوها يريد أخذ الهاتف:

– اسمحي لي، ناوليني هاتفك الجوال.

تضع الهاتف في الحقيبة، تغلقها، تتمسك بها، تضمها إلى صدرها.

يا إلهي، ورسائل هذا الأجرب، سيقرؤها في هاتفي الأجرب، ماذا أفعل؟

– افتحي صندوق السيارة الصغير، الذي هو أمامك، وانظري ماذا فيه؟

تفتح الصندوق، تنظر.

– هو هاتف جوال جديد لك، بمناسبة نجاحي في انتخابات غرفة التجارة، فيه خط جديد برقم ذهبي جديد، هاتف حديث متطور، اسحبي الشريحة من هاتفك القديم وارميها من النافذة إلى جوارك، واسمحي لي، هات هذا الجهاز القديم، لأرميه أنا إلى جواري من النافذة.

إجازة...لثلاثة أيام فقط

ثلاثة أيام إجازة، فقط، مارست فيها الحرية.

*

زوجتي ترقد في المستشفى، منذ يومين، وقد أجرت عملية بسيطة، وفي هذا اليوم، ستغادر المستشفى، وأنا في المطبخ في مكانها أعد الطعام للأولاد، عرضت عليهم الذهاب إلى المطعم، فقالوا لا نذهب إلى أي مطعم من غير أمنا، عرضت عليهم الطعام الجاهز من السوق فقالوا: "أي طعام تشتريه من السوق نشتهي أن تكون أمنا معنا لتشاركنا فيه"، لم أجد حلاً سوى أن أطبخ لهم الطعام بنفسي، أخذت إجازة من العمل لثلاثة أيام، وأنا الآن في المطبخ وراء القدر.

*

جدتي كانت تصب الماء في القدر من غير أن تقيسه بأي مكيال، كانت تقول: "المسألة مسألة ذوق ونظر"، أمي تكيل الماء بالكاسات، جدتي كانت تعيب عليها ذلك، يرحم الله الاثنتين، زوجتي دائماً تنظر في كتاب فن الطبخ، بل في كتب فن الطبخ، وأبت إلا شراء ميزان مطبخ، ابنتي في باريس كثيراً ما تتصل بأمها وأسمعها تسألها عن طريقة إعداد الباذنجان مع اللحم في الفرن أو البطاطا.

أنا اليوم سأعتمد على نفسي، لن أسأل أحداً ولن أستعين بكتاب ولا مكيال ولا ميزان.

أصب الماء في القدر إلى ربعها، الماء هو الحياة، ما أعذبه، أشرب نصف الكأس ثم أصب البقية في القدر أيضاً، كأنني أول مرة أشرب الماء، "وجعلنا من الماء كل شيء حي"، كأنني أشرب ماء من ذوب الثلوج في القطب الشمالي، لم لا، والبحار والمحيطات كلها متصل بعضها ببعضه الآخر، الماء في العالم واحد، الماء ينداح في قاع القدر، يترقرق شفافاً صافياً، يعلو قليلاً، هذا يكفي، ما أصفاه وما أجمله، كأنه مرآة في القعر الأبيض للقدر، أكاد أرى وجهي فيه، مثل الفتى نرسيس وهو يتأمل وجهه في صفحة بركة رقراقة، الماء في القدر يذكرني بعجوز قرأت لي مرة طالعي في صحن فيه ماء شفاف، لم يتحقق من كلامها شيء، كان كلاماً جميلاً تمنيت لو تحقق بعضه، لهب النار أزرق شفاف يميل إلى اللون البنفسجي، أحس حرارته، لو كنا في الشتاء لتدفأت به، مثلما تدفأت بائعة الكبريت بلهب أعواد الثقاب ثم ماتت على الرصيف متجمدة من البرد بعد أن نفدت أعواد الثقاب، أضع القدر على النار، أتحكم بمفتاح الموقد، أزيد من حدة الاشتعال، القدر بركان صغير، بعد قليل سيثور البركان، ويصبح قاع القدر مثل البحيرات الحارة، هذه الفقاعات بدأت تنبثق في القدر، الماء يغلي، وهذه ذرات من الملح، أتذوقه، أتأكد أنه ملح، أخشى أن يكون سكراً، هو ملح بحري أبيض نقي، له طعم خاص، هذه أول مرة أتذوق فيها الملح وأنا في المطبخ أمام الموقد، وراء هذا الملح بحار ومحيطات، له رائحة اليود، ولذعة الصخور، أوه نسيت الأرز، كان يجب أن أنقعه في الماء، لا بأس سأغسله بسرعة، أصب عليه قليلاً من الماء وأخضه، مزارع الصين أمامي،

والفلاحون أرجلهم تغوص في المـاء، وأصـــــابعي تغوص في الصحن، نداوته ممتعة، ودغدغة حبات الأرز مسلية، أحمل حبات الأرز، أصـــفيها من الماء، أصـــبها فوق الماء الحار، أوزعها في القدر.

*

يرن جرس الهاتف، أجعل النار تحت الأرز هادئة، صـــوت حماتي، أعتذر إليها، لا، لا، لا تتعبي نفسك، تريد أن تأتي لتطهو لنا الطعام، لا أريد، أشـــكرك، أنت لم تســـتطيعي زيارة ابنتك في المستشفى، عظامك نخرة متآكلة، وركبك لا تكاد تحملك، هل يعقل أن تقفي هنا في موضـعي وراء القدر، دعيني وحدي، لا أريد لأحد أن يحل في المطبخ محل زوجتي، لا أريد لأحد أن يحرمني هذه المتعة، أنا هنا وحدي، أمارس أول مرة الطبخ، هل جرب آدم قبلي الطهو بنفسه؟ أنا آدم المطبخ، أتعامل مع الكون كله، أكتشف أول مرة سر الطعام، بل سر المطبخ. ماذا سأطبخ إلى جانب الأرز؟ لا أعرف، لن أتقيد بكتاب ولا وصفات ولا توصيات، هل يعقل أن أتصـــل بابنتي في باريس لأســـألها كما تســـأل هي أمها، لا، لن أستعين بأحد، أنا هنا في هذا الكون وحدي، سأصنع ما أشاء، قبل أن يـأتي الأولاد، قبـل أن تـأتي حواء، بين الموقـد والخزانـة أروح وأجيء، حركة ممتعة، هي خير من جلوســـي وراء المنضـــدة في مكتبي ثماني ساعات، يدي تتشنج وأنا أضـع التوقيع والخاتم على آلاف الوثائق كل يوم، صـــورة طبق الأصـــل، نعم، صـــورة طبق الأصل، صورة طبق الأصل، صورة طبق الأصل، وهل الأصل طبق الأصـل؟! لا أعرف، أنا أصـادق فقط على مطابقة الصـورة

للأصـــل، كان المطلوب صـــورة واحدة، أصـــبح المطلوب ثلاث صـــور، وغداً حتى قبل تقاعدي سـيكون المطلوب خمس صـــور، صـــورة طبق الأصـــل تتكرر أمامي، تتكرر في منامي، أنا رئيس قسم التصـديق، على المنضـدة قطعة خشـب مزخرفة، أحمد محمد الأحمد المحمود الحمدان الحميدان، رئيس قســم التصـــديق، أحمل القلم وأوقع، أحمل الخاتم وأختم، أحمل سكيناً، أنتقي خمسة رؤوس من البصـل، أقطع الرؤوس، أقطع الذيول، هل أقسمها شرائح، هل أفرمها قطعاً صغيرة، لن أذرف دمعة، سأذبحها، لن أجرح إصبعي، السكين تدخل في طبقات البصـل، تخترق طبقات الأرض السـبع، تقسمها شرائح شرائح، أوزعها فوق الزيت الحار، أزيد من قوة النار تحتها، الزيت له نشيش، يمكن أن أصنع موسيقا من هذا النشيش، أتملى شـرائح البصـل وهي في الزيت المشـتعل، أرش فوقها الملح، كم رائحة البصـل شـهية، لا أعرف لماذا تشـتكي زوجتي من رائحة البصـل، الدموع تملأ عينيها، أوه، الآن بدأت عيناي تذرفان الدمع، هذه هي الحقيقة، لا بد أن نبكي حين نعرفها، ولذلك نهرب منها، قشـــرة وراء قشـــرة، ونظل نزيل القشـــور، رائحتها كريهة، تدمع لها العينان، ولا شيء في النهاية سوى القشور، لا أعرف من قال هذا، هكذا هي الحياة، فلتكن، هي جميلـة، حتى لو كـانـت بصـــــلـة، سـنعيشـها، ونقشـرها، وندخل في طبقاتها، ونعرفها، شـرائح البصـل بدأ لونها يميل إلى الحمرة، كأنها أجنحة عصـــافير ملونة، أصـــب فوقها قطع البندورة الحمراء، أصـــــب فوقها قطع اللحم، وددت لو أني ذبحت ذلك العجل بيدي، ثم حملت رأســه من قرنيه، كم لحمه قاس وســميك، ولكنه شــهيّ، الســكين تغوص فيه، وأنا أضــغط،

الجزار لم يقطعه بشـــكل فني، أنا قطعته بفنية أجمل، جعلته مكعبات صغيرة، لا، ليس بحجم مكعبات النرد، أكبر، أكبر، يجب أن يبقى فيه مذاق اللحم، لا بد أن تهرســه الأضــراس، لا أعرف لماذا تخيلته بقرنين، العجل لا قرون له، البائع قال هو لحم عجل، وأنا أتخيله الآن لحم ثور، بقرنين ورأس كبير، مثل رأس المدير العام، حتى لحمه مثل لحمه، حتى جلده، لا، عدلت عن قراري، لن أترك لحمه نيئاً، سأسلقه أكثر، سأجعله ينضج وينضج، حتى يهترئ، حتى يذوب، حتى يضمحل، ما أجمل أن تعدل عن قرارك بسرعة، وأن تتخذ قراراً جديداً، لا شك أن آدم كان يعدل كل ساعة عن قراره، ويتخذ قراراً جديداً، فالمطبخ عنده واســع، وســع الكون كله، وهو وحده، ومطبخي الآن أنا هو الكون كله، الآن عرفت ســبب كثير من حالات الخصـــام بين أمي وجدتي، يرحم الله الاثنتين، ثم بين أمي وزوجتي، هذه تقول لها قطع اللحم كبيرة، يجب أن تكون أصــغر، وهذه تقول لها بل هي صــغيرة يجب أن تكون أكبر، وأنا هنا وحدي، أتصــرف بحرية، اللحم الأحمر يدخل في البندورة الحمراء، يمتزج مع شــرائح البصــل، أرش فوقه البهار الأسود، أشمه، أرش البهار الأبيض، أشمه، هما مختلفان حقيقة، كم كنت أخاصم زوجتي وأقول لماذا الأبيض والأسود؟ هما سواء، الآن عرفت، الليل ليس كالنهار، للنهار رائحته، والليل له رائحته، كم رائحته شهية، ولا سيما في الشتاء، عندما يغسل المطر الكون، أو عندما تقعد إلى جوار المدفأة وتقشــر حبات الكســتناء الســمراء المشــوية، وليل الصــيف له رائحته، عندما تمســح الوجوه والأذرع العارية في الشرفة نسمات القمر ويسطع في الأجواء عبق القهوة،

أوه، لا يمكن أن أنسى الفليفلة الحمراء، والخضراء، وإذا نسيتها فماذا يعني ذلك؟ من سيعاقبني؟ هل نسيت أن أوقع على دفتر الدوام؟ هل وضعت الختم قبل أن أوقع، ثم نسيت التوقيع، هذه هي قرون الفليفلة الحمراء، هل أزيل منها البذور والعروق؟ ليست حارة، لن أزيلها، من الممكن أن أفرمها قطعاً صغيرة، ومن الممكن أن أقطعها بالعرض لتصبح دوائر دوائر صغيرة مفرغة، شكلها هكذا أجمل، ولا سيما حين تتعانق دوائر الفليفلة الحمراء مع دوائر الفليفلة الخضراء، وتنضم إليها شرائح البصل المحمرة، كأنها أساور زجاجية ملونة في يد طفلة شقراء، ولا بد من القليل من الماء، في كل مكان لا بد من الماء، ولو بقدر، يمكنني أن أصب ما أشاء من ماء، لا مكيال، ولا ميزان، هنا أحكم ذوقي، أتحكم برأيي أنا، أنا أجتهد، أنا أقرر، أنا أفعل، أنا أطبخ، أنا مدير المطبخ، أنا وحدي، أحرك المزيج بملعقة خشبية، أخلط العناصر، لا بد أن يتحد الهواء مع الماء، هل يتحد به؟ لا أعرف، لا بد أن تمتزج الحرارة بالعناصر كي تنضج، أنقر بالملعقة على حافة القدر، إيقاعها هادئ، كانت أمي تنقر على حافة القدر بملعقة من معدن، فيرن الصوت، تنقر بإيقاع معين، كأنها تعزف لحناً، تضجر منها جدتي، فتصيح: "كفى شطارة، سمع كل الجيران، عرفوا أنك في المطبخ"، لا بد من تغطية القدر حتى تحل الرائحة في الطعام فتمنحه نكهته، ما أشهى الرائحة، عندما نجلس إلى مائدة الطعام كانت أمي لا تأكل إلا القليل، يلح عليها أبي، فتقول: "شبعت من رائحة الطبخ""، حقيقة رائحة الطبخ ممتعة.

*

جرس الباب يرن، جارتنا بالباب، هي صديقة زوجتي، تقول لي: "شـممت رائحة الطعام تخرج من نافذة مطبخكم، هل تريد أي مساعدة؟ هل ينقصك أي شيء؟"، أشكرها، أعتذر إليها، لا، لا أريد أي شيء، أسرع فأغلق الباب، أريد أن أبقى وحدي، هنا في مملكة زوجتي، في مملكتي، لا أريد لأحد أن يحل في محلها، دعيني وحدي، أرجوك، دعيني أمارس حريتي.

*

أنا الآن أمام المائدة، أوزع الصحون، والأطباق، والكؤوس والملاعق، هذه خريطة العالم أمامي، أنا أوزع القارات والجزر والممالك والبحار والمحيطات، أعيد تشكيلها كما أريد، الملك لير لم يوزع المملكة بين بناته بالعدل، حرم الصغرى لأنها لم تتملق غروره، أنا لن أحرم أحداً من أي قارة أو مقاطعة، فأنا لست العجوز الخرف مثله، لتكن الملاعق على اليمين أو لتكن على الشمال؟! ما يضر؟ هناك في المديرية يجب أن أضع خاتمي وتوقيعي على اليمين من صورة الوثيقة، صورة طبق الأصل، ثم يضع المدير خاتمه وتوقيعه على الشمال من صورة الوثيقة، هو لا يضع الخاتم، هو يوقع فقط، السكرتيرة هي التي تضع الخاتم، المدير العام أنزل له في مكتبه من السماء سكرتيرة خاصة فقط لوضع الأختام، ليست سكرتيرة، هي لؤلؤة، هي حورية، كما يقال، من حوريات الجنة، من المؤسف وهو يحمل شهادة عالية أن يكون عمله التوقيع على آلاف الوثائق كل يوم، لا لشيء إلا لأنه المدير العام، دكتوراه من برلين في علم المعادن، ودكتوراه ثانية من أوكسفورد في النظائر المشعة، ما الفائدة من هذه أو تلك؟ شهادة

ضـــائعة في غير محلها، كم أكرهه، كم أشــفق عليه، أنا لا أحمل غير الإجازة في الحقوق، وبمعدل مقبول، وبعد تســع ســنوات من الحياة الجامعية الفاشـــلة، من الطبيعي أن يكون عملي التصـــديق على صـور الوثائق، سأكسـر كل الأعراف، لن يختل نظام العالم، أنا ســأصـــنع نظاماً جديداً للعالم، ســأضــــع الأشــواك والملاعق والسـكاكين كلها بعضــها مع بعض، تارة على يمين هذا الصـحن، وتارة أخرى على شـمال ذلك الصـحن، هذه هي الفوضــى الخلاقة، ثم سأقدم الفاكهة أولاً، لن أقعد أمام رأس المائدة، ليقعد مجد أصغر أولادي أمـام رأس المـائـدة، المـدير العـام دائمـاً يتصـــــــدر قـاعـة الاجتماعات، يقعد أمام رأس الطاولة، على شـــــماله نائبه الأول، أتمنى أن أرى ذات يوم البواب أو الحارس الليلي وهما يتصـــــدران طاولة الاجتماع، سأجعل على شمالي ابنتي الصغرى هناء، لتقعد لينا على رأس الطاولة، هي صـــورة طبق الأصـــل عن أمها، في شـكلها وفي عنادها، ولكن لا، لا يمكن أن تحل محل أمها، عادل وأنس لا يشــبهاني في شـــيء، كلهم يشــبهون أمهم، ليتوزع الأولاد كما يشـــــاؤون، زوجتي تعبد القوانين والنظام والترتيب والأعراف والتقاليد، تعبد الوظيفة، هي دينها ودنياها، بل تعبد المدير، تقول لي: أنـا في المـديريـة مـا يقارب الثلاثين عـامـاً، مر بي عشــــرة مديرين، ولم أجد مثل هذا المدير، هو أول من يداوم، وآخر من ينصــرف، وفي أكثر الأيام يأتي إلى المديرية بعد الســابعة مســاء ويظل حتى الحادية عشــرة ليلاً، المشــكلات المعقدة يتركها للدوام الليلي، لا يترك أي قضـــية لنوابه الثلاثة، هو شـــاب، عزب، لديه كثير من الوقت، وهي تتقمص شـخصـيته، تحسـب نفسـها المدير،

تحسب نفسها السلحفاة التي تحمل على ظهرها العالم، كما كان أهل الصين يتخيلون، تقول: غرفتي هي القلب الذي يضخ الدم من أقصى المدينة إلى أقصاها، حتى إلى الأرياف، حتى إلى العاصمة وسائر المحافظات، إذا لم ألتزم الدقة، ولم ألزم بها كل العاملات عندي في المكتب فسد الدم، وتوقف القلب، وتعطلت الأطراف، أنت يا منى انتبهي إلى وارد الأرياف، وأنت يا هيفاء احفظي صورة عن كل صادر، هذا بريد المدير العام الوارد، وهذا وارد المحافظات، وهذا وارد الوزارة، انتبهي إليه يا حسناء، وأنت يا نجوى المسؤولة عن الصادر، أربعة دفاتر، المدينة، والأرياف، والمحافظات، والوزارة، لابد أن تشكو لي في المساء تقصير لمى، سأرفع كتاباً إلى المدير أقترح نقلها إلى المستودع، ديوان الصادر والوارد هو القلب، كل شيء يصب عندي، كل شيء يصدر عني، وأنا وحدي المسؤولة، أنا رئيسة الديوان، لا يمكن أن يضيع شيء، حتى الكتب والرسائل السرية تفضها، وتحتفظ بصورة عنها قبل إرسالها، تخرجتُ قبلها في كلية الحقوق، ثم تزوجنا بعد سنتين، عينت هي في مديرية التربية، كان تعيينها فوراً رئيسة الديوان، أبوها ضابط طيار، لا يمكن أن يحلق بالطائرة إلا إذا كانت جاهزة مئة بالمئة، ولا يمكن أن يحلق هو أيضاً إلا إذا كان كذلك، ابنته أيضاً مثله، سُرِّح قبل عشر سنوات، قبل أن يرفع إلى رتبة لواء، أنا عينت في مديرية الصناعة، في قسم التوثيق، ثم نقلت إلى قسم التصديق، والدي بائع حر متجول، يدفع عربته في الشوارع والطرقات، يبيع يوماً الخيار ويوماً الباذنجان، وإذا عن على باله ألا يعمل فلا يخرج من البيت، أقول لها: "أنت في الثالثة

والخمسين، أهنئك، سيأتيك التقاعد بعد سنتين، أنا تقاعدي في الستين، ما يزال أمامي خمس سنوات"، تقول لي: "يمكنك لتقاعد غداً إذا شئت، وفق طلبك، لا تنتظر، أعرفك تكره الوظيفة، أنا لن أتقاعد، المدير لا يستغني عني، ولا الوزير، سيمدد لي حتى الستين، تقاعد أنت إذا شئت غداً، أنا لن أتقاعد، سأبقى في الوظيفة ما دمت على قيد الحياة، القوانين ستتغير"، هي دقيقة في كل شيء، حتى في المطبخ، كل شيء في مكانه، طوال عمرها لم تمرض، لا أعرف كيف التهبت عندها الزائدة الدودية هكذا فجأة، شفاك الله يا زوجتي الحبيبة، وأعادك إلى بيتك والأولاد بالسلامة، وإلى زوجك، لا غنى لي عنك بعد الآن، وأنا في هذا العمر، عنيدة أو مطيعة، مرتبة أو فوضوية، وأنا كذلك، بل أنا أسوأ، لا بد أن أعترف، لا غنى لبعضنا عن بعض، سامحيني أرجوك، لعن الله البصل، أنا لا أبكي، هذه دموع البصل، لاشك أن زميلاتك الآن في الديوان قد استهلكن أطناناً من البصل، قشرنها كلها في الديوان، ومسحن العيون بالكتب والرسائل، لم يسجلن أي كتاب، عودي إليهن.

*

أعود إلى المطبخ، هذا هو العالم الحقيقي، هنا الطعام قُوْتُ الحياة، أتفقد الأرز، لا بد من قليل من الماء، لا بد من السمن الساخن، أشم فيه رائحة المراعي، أرى قطعان الغنم تسرح، وأسمع صوت الشبابة يعزف عليها الراعي، أصب السمن الساخن وقد ماع فوق الأرز، نشيش وبخار وأشذاء، أحرك الأرز، ثم أغطيه، أنقر بالملعقة الخشبية على حافة القدر، لتسمع الجارات كلهن، أنا

هنا في أطبخ، القدر أجمل بحيرات العالم، بجعات بيض تسبح فوق سطحها الهادئ، الغابات تنفث أبخرتها السحرية، هنا أنا أحتضن العالم كله، لا بد من اللوز المحمص فوق الأرز، أنا أحب اللوز المحمص، زوجتي تعده بطريقة فنية عجيبة، أوه، ليس لها من فضل، الفضل للسمن، هأنذا أضع اللوز المقشور في السمن الساخن، الساعة الرابعة والربع، حتماً سيصل الأولاد الآن، سأقلب الأرز في هذا الصحن الزجاجي الشبيه بزورق، يا للزورق الزجاجي المتألق وهو يسبح في محيط المائدة وسط القارات والجزر، لا بد من رش البهار الناعم فوق صحن الأرز، ولكن يا إلهي، ما هذه الرائحة؟ أوه، اللوز المقشور يحترق، ما حسبت أنه سيحترق بهذه السرعة، أرمي السمن واللوز المحترق في الحوض، الدخان يملأ فضاء المطبخ، فليمتلئ المطبخ بالدخان، وليحترق اللوز كله، لن يحاسبني أحد، كم كنت أحاسب زوجتي وألومها إذا حرقت الخبز وهي تحمصه، كم لامتها أمي وعنفتها، أنا هنا وحدي، أنا هنا الملك، نيرون أحرق روما، وأنا سأحرق اللوز والمطبخ كله، وسأحرق كل الوثائق والمديرية والديوان بكل ما فيه من صادر وارد، ما أفعله أنا هو الصحيح، مثلي هنا في المطبخ مثل المدير العام هناك، مثل مديري المباشر.

*

ها قد جاء الأولاد، راحت رائحة الحريق، ونحن حول المائدة، مجد يسألني: "أين اللوز المحمص؟ أمي كانت ترش دائماً اللوز المحمص فوق الأرز"، أقول له: "نسيته"، يتشمم بأنفه الرائحة، يغمز بعينه وهو يشير إلى الحوض، شعب متمرد، لا يقر

بالإنجازات، نســـي المائدة العامرة أمامه، وتذكر اللوز المحمص، ولا يمكن أن تخدعه أو تكذب عليه، عهد نيرون ولّى، الحقائق تنكشف، أصبح لها لون ورائحة.

*

بعد الغداء أذهب أنا والأولاد إلى المستشفى، زوجتي تسألني: "ماذا فعلت اليوم؟".

ماذا يمكنني أن أفعل؟ كنت في أيام العطل أهرب إلى قراءة هوميروس ودانتي وشكسبير والمتنبي والمعري وابن خلدون، أتقنت الإنكليزية، وترجمت بعض القصص، نشرت عشر مقالات في صحيفة محلية، سخر مني زملائي في مديرية الصناعة، اتهمني مديري بالتقصـــير في العمل حين دخل فجأة فوجد على المكتب ديوان المتنبي، واليوم حرضـــت بركان القدر فثار، ذوبت بحيرات السمن فماع، شربت ماء البحر والمحيطات، أحرقت غلال اللوز، أطعمت خمســة مليارات من ســكان العالم، المليار الســادس هو أنت، كفاني المستشفى إطعامك، ابتكرت أنواعاً جديدة من الطعام، ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك، ماذا يمكنكم أنتم أيضــاً، أيها القراء الكرام، أن تفعلوا، داخل المطبخ، أو خارجه أكثر مما فعلت أنا؟، اعذروني.

*

أحدثها عن الأرز، تســـألني: "وهل وضـــعت فوقه اللوز المحص؟ تحميصه يحتاج إلى دقة وعناية"، مجد يتكلم: "بابا حرق اللوز ورماه في الحوض وملأ الشـــقة كلها برائحة الحريق"، لينا، ابنتي الوســطى تتكلم: "وحرق البصــل، أحســسـنا بطعم المرار،

وسكتنا"، أنظر إليها، أتكلم: "ولكن لا يمكن الإنكار، الطعام لذيذ، والأهم، المائدة كانت عامرة"، تلتفت زوجتي إليَّ وهي تقول: "سامحني، أتعبتك معي"، أقول لها: "بل أشكرك، عشت ثلاثة أيام استمتعت فيها بروائح الطعام، لا أجمل من البهار ولا أشهى من تقطيع اللحم، حتى الملح الذي كنت أتجنبه خوف ارتفاع الضغط أحببته، سوف أستقيل من عملي في مديرية الصناعة، حتى أقعد ليل نهار في المطبخ"، أهمس في سري: "ولكن اللوز وحده عكر مزاجي، لا يمكن للصفو أن يكتمل"، زوجتي تغالب الألم، تكاد تنهض من الفراش، تقول وهي شبه غاضبة: "أنا أعرف، أنت تكره الوظيفة، وتشتهي من زمان التقاعد، اترك أنت الوظيفة أو تقاعد، افعل ما تشاء، أنا لا أتخلى عن الوظيفة، سأظل أجمع بين المطبخ والوظيفة، واليوم سأخرج من المستشفى، وغداً سأداوم، سأقطع إجازتي المرضية، ولن أسمح لك بالدخول إلى المطبخ".

*

وأنا سأعود غداً إلى صورة طبق الأصل، انتهت إجازتي، انتهت حريتي.

يا موظفي العالم، أرجوكم، لا تسخروا مني، أرجو أن يكون بإمكانكم أن تعملوا بأفضل مما عملت.

في انتظار فاتنة

سمع اسمه، هو أول اسم يناديه مرافق السائق، فرِحَ مثل طفل، مدّ إليه يده، استعان بها، تعاظم فرحه حين قال له: "مقعدك رقمه: واحد"، اتخذ مكانه، الواجهة الزجاجية العريضة في مقدمة الحافلة سيستمتع من خلالها برؤية المشاهد في الطريق، دفعه الفضول، سأل المرافق: "ما اسم الراكب إلى جواري؟"، ضحك المرافق، أجاب: "سيدة"، غمره سرور زائد، هتف سائلا:" شابة؟"، ردَّ المرافق: "شابة جدًّا، لكنها في مثل عمرك"، عراه اكتئاب، مهما يكن، فهي سيدة، لا بد أن أجد عندها بعض الأنس، ونادى المرافق اسمين، صعد الأول، عجوز في الستين، نحيل جدًّا، طويل، ظهره محني، كأنه الهلال في آخر الشهر، أنفه طويل، مثل نقار الخشب، تبعه رجل مثله في النحول، لكنه أقصر منه قليلًا، كأنه نسخة طبق الأصل عنه، لعله أخوه، لكنه أقصر منه، وأقل منه في العمر.

وضع نظارته على عينيه، مدَّ نظره نحو القائمة في يد المرافق، حاول أن يتبين اسم السيدة التي ستكون إلى جواره، لم يتمكن من قراءة الاسم، رجلان آخران يصعدان إلى الحافلة، في الخامسة والخمسين، الأول بدين، وجه مدور، شعر أسود كثيف، عينان واسعتان جدًّا، سوداوان، تبرزان في الوجه كأنهما تريدان القفز إلى أمام، مثل عيني ضفدع عجوز، شِدْق واسع عريض،

زاويتا الفم متهدلتان إلى أسفل، يتبعه رجل أصفر اللون شاحب، نحيل جدًّا، عنقه بارز من فتحة القميص مثل عنق الديك، حليق اللحية، خداه غائران، عظام الوجنتين بارزة، ضامر البطن جدًّا، تحمل بنطاله شيالتان اثنتان، كأنه خارج للتو من السجن بعد شهرين من الإضراب عن الطعام، يصعد بعده عملاق ممتلئ الصدر، في السبعين، مثل مصارع متقاعد، يرتدي قميصًا أخضر، كأنه عربة عسكرية مصفحة، رأسه حليق، جلد رأسه أبيض يلتمع، كأنه مدهون بالزيت، لحيته سوداء طويلة، تصل إلى بطنه، شاربان أسودان كثيفان، وشفتان غليظتان، صعدت بعده سيدتان في الستين، توءمان، ناعمتان، نحيلتان، وجوه متغضنة، عيون غائرة، الأصابع ليس فيها سوى الجلد والعظم، تتناوبان الكلام بتذمر وشكوى: "مقعدنا ٣٣ – ٣٤ غير مريح"، "أنا متشائمة من هذه الرحلة، نفسي منقبضة"، "ليتنا نرجع إلى البيت"، "ما هذا الصباح العكر"، يضحك، "أنا لن أرجع، ولو امتلأت الحافلة بألف نسخة عنكما"، يمد نظره إلى القائمة، لا يتمكن من القراءة، يدفعه الفضول: "ما اسم السيدة المسافرة بجواري"، يطير صوابه :" فاتنة"، لا شك في أن أبويها أحسنا اختيار الاسم، ويمتلئ باب الحافلة بجثة ضخمة لرجل بدين جدًّا، يصعد الدرجتين في باب الحافلة بصعوبة، المرافق من ورائه يدفعه، يزقُّه زقًّا، اللحم في بطنه يترجرج، الزوائد اللحمية في خاصرتيه مخدتان كبيرتان، وجهه ضخم مدور، ممتلئ بالبثور والزؤان وكلف الشمس، مثل صحن تكوم فيه اللحم والأرز والمكسرات، اللغد تحت ذقنه يتدلى، مثل الكيس تحت منقار البجع، لا أعرف كيف سيدخل في الممر

الضـيق بين المقاعد، سـوف يأخذ مقعدين، يلتفت، يراه من خلف، كأنه مدحلة بعجلتين حديديتين عريضتين، يصعد رجل في الستين، يتبعه رجل في مثل عمره، يحمل كيسًا ورقيًّا بيد، وكيسًا صغيرًا بيد أخرى، هذا الكيس من الورق البلاســتيكي اللامع فيه مقرمشــات، وهو يدخل في الحافلة يلقي في فمه بضــع قطع صــغيرة ويقرمش، يحتلان المقعد الموازي لمقعده، يتكلم كل منها إلى الآخر، "رحلة ممتعـة"، "أنـت لم توافقني من البـدايـة"، "كنـت مترددا"، " الطريق وحده يسـلي"، صـوتان مثل زقزقة السـنونو قبيل المغيب، لا يكفان عن الكلام، الكيس الورقي في يده يزقزق مثل فأر علقت رجله في فخ، "أرش، أرش، أرش"، صوت القرمشة يحفر في أذنه مثل مثقب كهربـائي، الرجـل الأقرب إليـه في المقعـد الموازي يمـد يـده داخـل الكيس الكبير، ويســتخرج كيس مقرمشــات، يلتفت إليه: "مرحبًا جـاري، خُذْ هـذا الكيس، قرمش معنـا"، يعتـذر إليـه، يلح عليـه، "قرمش، الحياة كلها قرمشــة، قرمش، لا تحرم نفســك، هذا الكيس الكبير مليان أكياس قرمشـــة"، يعتذر، يميل عنه، يوليه جانبه، يقبض من داخل الكيس قبضـــة مقرمشـــات ويلقيها في حلقه، ويقرمشـــها، "أرش، أرش، أرش"، ينتقم من هذا الجار الذي رفض أن يشـاركه القرمشـة، يطبق قبضـة يده على الكيس الذي أصـبح فارغًا، فرقعات الكيس مسـامير تنصـب في أذنيه، يكاد يتقيأ، متى تأتي فاتنة؟

يصـعد رجل يتجاوز الثمانين، أسمر شديد السمرة، عيناه من وراء نظارته السـميكة جدًّا تبدوان صـغيرتين مثل عيني فأر، رجله اليسرى غائصـة في جبصـين من أسـفل الركبة إلى القدم، أصـابع

قدمه اليسـرى بارزة من الجبصـين، يأخذ مكانه وراء المقود، يدير المحرك، يسـأل المعاون: "هل هذا هو السـائق؟"، "نعم، من شـهر صـار معه حادث بسيط"، ينظر في سـاعة يده، هو موعد انطلاق الحافلة، الشـركة ملتزمة بالتوقيت، "أين فاتنة؟"، "هذه عادتها، كل مرة تتأخر، لكنها من زبائن الشركة، ها هي قد وصلت"، ينظر من النافذة إلى جواره، "هل هذه هي فاتنة؟"، "نعم"، ينهض من مقعده، يغادر الحافلة.

السيرة الذاتية للمؤلف

أ.د. أحمد زياد محبك

أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب

عضو اتحاد الكتاب العرب

قاص وناقد

السيرة الشخصية:

- من مواليد مدينة حلب في ١٠/٥/ ١٩٤٩
- تخرج في قسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٢
- حاز دبلوم الدراسات العليا في جامعة دمشق عام
- ١٩٧٣
- نال درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام ١٩٨١.
- عين مدرسًا في ثانويات حلب عام ١٩٧٤
- عين معيدًا في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٧
- نال شهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤.
- رفع إلى مرتبة أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٩٥.

النشاط الثقافي:

- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام ١٩٨٣ .
- عضـــو هيئة تحرير جريدة الأســـبوع الأدبي من عام ١٩٩٧إلى عام ٢٠٠٠ .
- عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام ١٩٩٨
- حاز جائزة هيروشـــيما في المركز الياباني بحلب عن القصة القصيرة عام١٩٩٥
- حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصـــة القصـــيرة عام ١٩٩٧.
- حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام ١٩٩٨.
- حاز جائزة الباســـل للإبداع الفكري بمدينة حلب عام ١٩٩٨.
- أمين ســـر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام ٢٠٠١ حتى عام ٢٠١٠.
- أوفده اتحاد الكتاب العرب لمدة أســـبوع إلى الجزائر العاصمة ١٩٨٨ في زيارة اطلاعية.

- أوفدته جامعة حلب إلى فرنسة ليحاضر في طلاب الدراسات العليا بجامعة ليون الثانية لمدة أسبوع عام ١٩٩٤.
- حاضر لمدة أسبوع في مدرسي اللغة العربية بمعهد تعليم اللغات الأم في استوكهولم بالسويد بدعوة من المعهد نفسه عام ٢٠٠٠.
- كرمته جمعية النقد الأدبي في اتحاد الكتاب العرب بدمشق بالتعاون مع فرع اتحاد الكتاب العرب في حلب عام ٢٠٠١.
- أوفدته جامعة حلب إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام ٢٠٠٢.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقات كثيرة في اتحاد الكتاب العرب وفي اتحاد شبيبة الثورة ومنظمة الطلائع وجائزة باسل للإبداع الفكري في مدينة حلب لدورات متعددة.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة القصة القصيرة التي أعلنت عنها مجلة ديوان العرب (الرقمية) في القاهرة عام ٢٠٠٥.
- عضو أسرة التحرير في موقع ديوان العرب ٢٠٠٨.
- حاضر لمدة أسبوع في كلية الإلهيات في جامعة وان بمدينة وان في تركيا عام ٢٠٠٩
- عضو المجلس الأعلى للغة العربية، بيروت، ٢٠٠٩.

- أوفدته جامعة حلب مرة ثانية إلى جامعة عين شمس بالقاهرة بمهمة البحث العلمي لمدة أربعة أشهر عام٢٠١٠.
- عضو لجنة تحكيم في مسابقة ديوان العرب للمجموعة القصصية عام ٢٠١٢
- رئيس تحرير مجلة بحوث جامعة حلب ـــ سلسلة العلوم الإنسانية ٢٠١٥. ٢٠١٩
- رئيس قسم اللغة العربية بجامعة حلب ٢٠١٧ . ٢٠١٩
- رئيس فرع حلب لاتحاد الكتاب العرب ٢٠١٥ .

المؤلفات المنشورة :

- حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) :
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢، ٤٣٠ صفحة.
- من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية):
وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ١٩٤ صفحة.
- يوم لرجل واحد، (قصص قصيرة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦ ، ٢٠٠ صفحة.
- المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة):
دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩، ٣٧٤ صفحة.

- حجارة أرضنا ، (قصص قصيرة):
مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩، ١٠٩ صفحات.
- الكوبرا تصنع العسل، (رواية):
دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٤٥ صفحة.
- بدر الزمان، (مسرحية):
دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ١٠٤ صفحات.
- حلم الأجفان المطبقة، (قصص قصيرة):
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦، ٣٣٥ صفحة.
- عريشة الياسمين، (قصص قصيرة):
دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦، ٢٥٦ صفحة.
- دراسات في المسرحية العربية، (دراسة) :
مطبوعات جامعة حلب، حلب، ١٩٩٧، ١٨٥ صفحة.
- حكايات شعبية (نصوص ودراسة) :
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩ ، ٧٧٠ صفحة.
- دروب الشعر العربي الحديث (دراسة) :
مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠ ، ٢٤٠ صفحة.
- لأنكِ معي (قصص قصيرة جداً) :
دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠ ، ١٨٠ صفحة.
- طعم العصافير (قصص قصيرة) :
دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١، ١١٢ صفحة.
- قصائد مقارنة (دراسة ونصوص) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب،٢٠٠١، ١٢٥ صفحة.

- دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة (دراسة):

منشورات دار علاء الدين، دمشق،٢٠٠١، ٣٠٠صفحة.

- العودة إلى البحر(قصص قصيرة):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠١، ١٥٣صفحة.

- الرحيل من أجل مها (قصص قصيرة):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م، ٢٤٨صفحة.

- انكسارات (بحوث ومقالات)

دار المعرفة، بيروت،٢٠٠٤، ٤٤٠ صفحة.

- الدكتور أحمد زياد محبك (كتاب التكريم تأليف مجموعة من الباحثين):

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤ ، ٢١٦ صفحة.

- متعة الرواية (دراسة)

دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٣٤٨ صفحة.

- من التراث الشعبي (دراسة)

دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٧٦ صفحة.

- وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة)

دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥، ٢٣٦ صفحة.

- عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)،

وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦، ٢٠٨ صفحات.

- قصيدة النثر، (دراسة)،

اتحاد الكتاب العرب، دمشق،٢٠٠٧، ١٢٥ صفحة.

- قراءات في الشعر العربي الحديث، (دراسة)،

مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧، ٣٠٠ صفحة.

- نوافذ وشرفات، (مقالات)،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١٦٠ صفحة.

- ريش نعام، (قصص قصيرة جداً)،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧، ١١٢ صفحة.

- نجوم صغيرة، (قصص قصيرة جداً)،

مطبعة الأصيل، حلب، ٢٠٠٨، ٨٠ صفحة.

- الأعمدة والغزالة، (قصص قصيرة)،

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.

- اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، (دراسة)

دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩، ١١٢ صفحة.

- دراسات في المسرحية العربي، (طبعة جديدة مختلفة كلياً)

مطبعة جامعة حلب، حلب، ٢٠١٠، ١٧٥ صفحة.

- حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)

دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١، ١١٢ صفحة.

- نقد السرد، (دراسة)

دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٤٤ صفحة.

- فوق سطح العمارة، (مجموعة قصصية)

دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢، ١٥٨ صفحة.

- أبو معتز والكناريات (مجموعة قصصية)

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤، ١٩١ صفحة.

- ما أزال أنتظر (مجموعة قصص قصرة جداً)

الشارقة، كتاب الرافد، آب، ٢٠١٥، ١٦٥ صفحة.

- شقة على شارع النيل (رواية)

دار أمل الجديدة، دمشق، ٢٠١٨، ٤٧٤ صفحة.

- نظرات متبادلة، (مجموعة قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٨، ٢٢٩ صفحة.
- السرير والمرآة، (مجموعة قصص)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٩، ٣٠٠ صفحة.
- شـــهريار يعترف، (مجموعة مســـرحيات)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٢٣، ٤٠٠ صفحة.
- قوس قزح فوق غزّة، (مجموعة قصصة)، منشورات الآن، ناشرون، عمان، الأردن، ٢٠٢٤، ١٦٢ صفحة.

المؤلفات بالمشاركة:

- ســـتة كتب في اللغة العربية لغير المختصـــين لجامعات سورية (١٩٨٨.١٩٨٦)
- خمســـة كتب في اللغة العربية لغير المختصـــين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)

- كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف) (ستة أجزاء) حلب (٢٠٠٠. ٢٠١١)
- عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤. ٢٠٠٧).
- الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).

عنوان المراسلة :
البريد العادي :كلية الآداب جامعة حلب حلب سورية
البريد الإلكتروني : mohabek@gmail.com
هاتف المنزل : ٠٠٩٦٣ ٢١ ٢٦٤٢١٣٢
الهاتف الجوال والواتس: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢

المحتوى

المحتويات

المنديل الأبيض ٣

موعدنا الشجرة ٧

لن ننسى أسماءنا ١٢

موروثات عزيز بك ١٨

هدية العيد والتفوق ٣٠

المعلم بنيان ٥١

داخل المقبرة ...خارج المقبرة ٥٩

الشيخ صالح ٦٧

راديو جدي...والمعلم آكوب ٧٦

العجوز... وقطعة الحجر ٩٦

العودة إلى السوق ١٠٢

فيلَّا عمَّار ١١٠

المُلَحِّن العجوز ١١٩

عين الكورونا ١٢٧

أخيرا...لمن ستكون الدار ١٤٤

الخروج من البيت ١٥١

إجازة...لثلاثة أيام فقط ١٧٤

في انتظار فاتنة ١٨٧

السيرة الذاتية للمؤلف ١٩٣